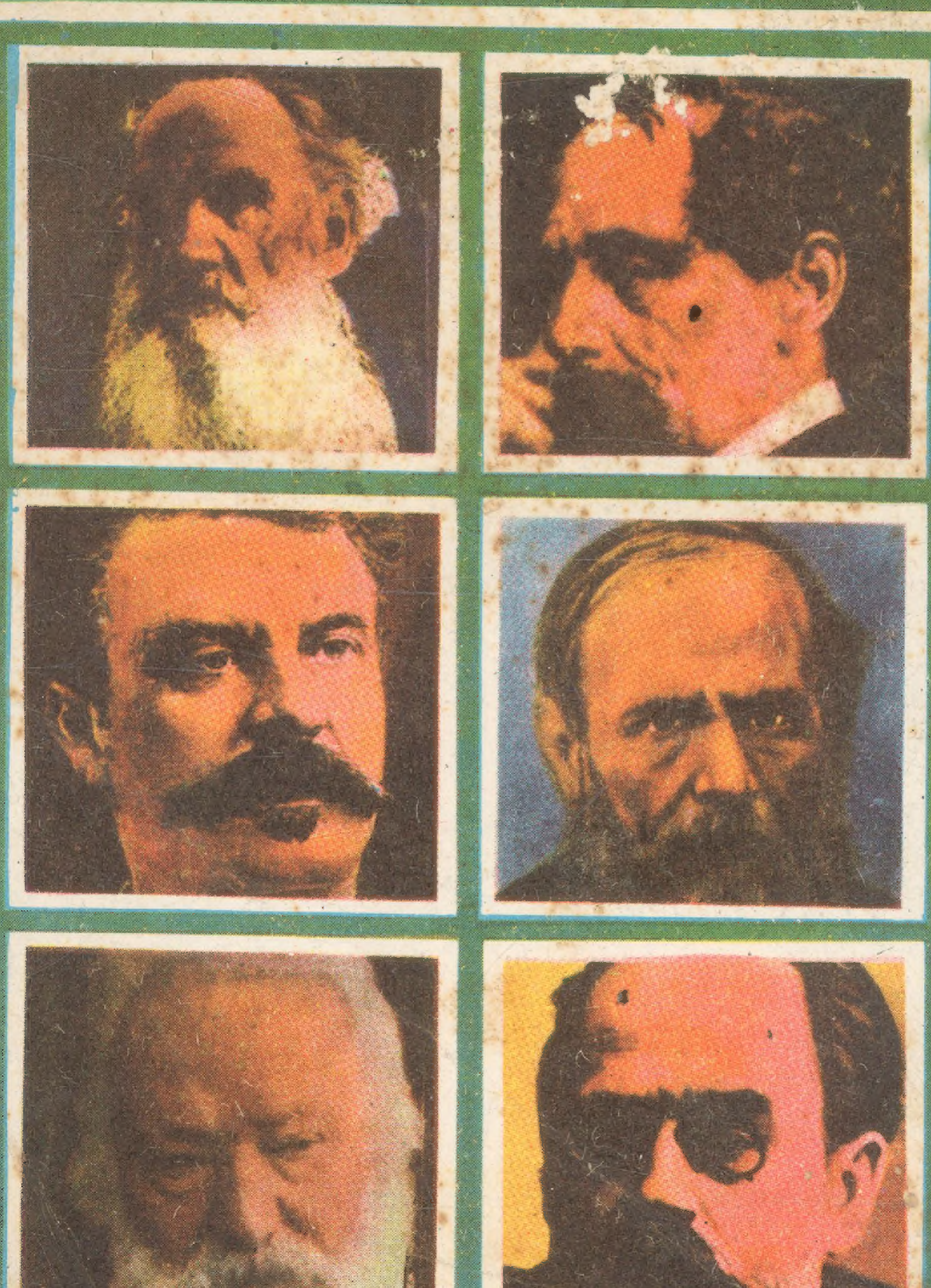
كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

أعلام الفن القصصي

• هنري توماس و دانالي توماس • عثمان نويه



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال

رئيسة مجلس الإدارة : **أمينة السعيد**

نائب رئيس مجلس الإدارة : **صبرى أبو المجد**

رئيس التحرير : **د. حسين مؤنس**

سكرتير التحرير : **عايد عياد**

العدد ٣٣٧ - صفر ١٣٩٩ - يناير ١٩٧٩

No. 337 — January 1979

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا · فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢ر٥ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر

... الخارج بشيك مصرفي

والأسعار الموضحة

بريد الجوى والمسجل

إهــــداء ٢٠٠٨

الدكتور/ محمد عبد القادر محمود

جمهورية مصر العربية

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان
أحمـــــــد الوردجي

أعلام الفن القصصي

●

تأليف

هنري توماس و دانالي توماس

●

ترجمه
عثمان نويه

راجعه
محمد بدران

●

دار الهلال

●

الجزء الثاني

الجزء الثانى

جوستاف فلوبير

(١٨٢١ – ١٨٨٠)

– ١ –

فى عام ١٨٤٠ أقبل الى باريس لتعلم القانون شاب غريب . فيه حياء ، وفيه فظاظة ، فيه وسامة وفيه اهمال ، فيه كبرياء وفيه حساسية وسلاطة ، وهو فى عامه الثامن عشر يبدو كأنه أفريقى فى قميص من الفانلة الحمراء ومعطف أزرق ، وهو صموت ، فاذا فتح فاه خلت أن لسانه كان منقوعا فى برميل من الخل ، فهو يبدى احتقارا للتقاليد ، ويرى حماقة بالفة فى كل الناس بما فيهم هو ، « ان اول جاهل يقع عليه بصرى هو أنا اذا ذهبت الى المرآة فى الصباح لأحلق » ويردف قائلا « وآخر من أرى من الجهال هو أى شخص يتفق لى أن احدثه قبل أن آوى الى مخدعى » .

من ذلك الشاب العجيب ؟ ان بالطلاب فضولا الى معرفة من يكون . انه فلوبير ، جوستاف فلوبير ، ابن كبير الجراحين بمستشفى روان ، ولقد قال أحد الطلاب لفلوبير سائلا (لا شك فى أنه مما يفيض على نفسك السعادة الفائقة أنك ابن رجل عظيم ذائع الشهرة)

واى سعادة فى ذلك ؟

(كيف ! فكر فى كل هذه الأرواح التى ينقذها) فأجاب فلوبير فى تهكم .

(ان أبى ينقذ الأغبياء صونا لما يأتون من حماقات).

- ٢ -

كان غريب الأطوار منذ نشأته الأولى ، فهو دائم الاهتمام بالجانب الأربد الكئيب من الحياة ، يتسلق ابان طفولته جدار مستشفى أبيه ، ليشهد الجثث فى قاعة العمليات ، وكان مفتونا بوجه خاص بالمجانين والمعتوهين، وكان يتوهم أن المجانين والمعتوهين يبادلونه الافتتان . وكان دقيق الملاحظة بطبعه فما كاد يتعلم الكتابة حتى بدأ يقيد لمحات عن الناس . وشب ابن مشرح الجسوم البشرية مشرحا للأرواح البشرية . فهو منذ صغره يؤلف التمثيليات ويمثلها مع أخته على مسرح منزلى هو مائدة الطعام ، ولم يقنع بمسرحياته فكتب قصة ومقالين علميين أحدهما عن كورنى والآخر عن الامساك ، كتب كل هذا قبل أن يصل الى الحلقة الثانية من حياته .

لكن كان عليه أن يستخفى من أبيه حين يكتب .. لأن دكتور فلوبير كان لا يقبل بتاتا أن يحترف ابنه الأدب . وحين حاول جوستاف أن يقرئه احدى روائعه أدركه النوم . فهو يتوق الى أن يجعل من جوستاف جراحا ماهرا مثله ومثل أشيل (أخى جوستاف) فنحن آل فلوبير أسرة محترمة ولا نحب أن يكون بيننا أفاقون ولا شعراء .

ولذا أرسل جوستاف الى مدرسة محترمة وظل ثمانى سنوات يحلم ويرقب ويكتب ويهزأ برفاقه الطلبة ويصاحبهم ، لأنه فى قرارته روح وديع ، شأن معظم قساة الساخرين ، فاذا كان عامه الثامن عشر أخبر أباه

فى بساطة انه لن يكون طبيبا .

وكان أبوه مستعدا لأن يتساهل معه « اذا لم تشأ أن تكون طبيبا فلتكن محاميا» وارسله الى باريس ليدرس القانون .

ولكن جوستاف كان عنيدا « اني بربرى عندى عناد البرابرة » وحب البرابرة للمغامرة « انى من نسل قراصنة صقليين » فسيغدو قرصانا روحيا أفاقا باحثا عن ذهب العبارة الرائعة « انى لأنوى أن أكون أديبا لا شيء غير ذلك » .

فيئس منه ابوه كما ييأس من حالة مرضية لا رجاء فيها ، وتنفس جوستاف الصعداء . فهجر كتب القانون والتفت الى دون كشوط « انجيل الحماقة البشرية » وصار هذا الكتاب المصدر الأول لفلسفة فلوبير والمبدأ الرئيسى الذى يؤمن به « ليست كارثة البشر أنهم أوغاد ، بل أنهم حمقى » وكتب بهذه الفلسفة عددا من المسرحيات والقصص تناول نواحى الحياة الربداء القاتمة ، منها قصة رجل فقد روحه تماما ، ومأساة مذهول يدفن حيا ويموت مجدفا بالقدر ، ومغامرات مخلوق أمه من الآدميين وأبوه من النسانيس ، وقصص عجيبة فجه كتبها لمجرد امتاع نفسه وامتاع أصدقائه .

وكان أصدقاء فلوبير هؤلاء أكثر منه تشاؤما . « وكنا مجموعة من الشباب الهاذرين نحيا فى عالم عجيب . ونضرب فى طريقنا المألوف بين الجنون والموت » . وقد انتحر بعض هؤلاء الشباب ، ومات آخرون فى فراشهم ، وشنق احدهم نفسه برباط عنقه ، وأقبل كثير منهم على الشراب ابتغاء الخلاص من أفكارهم .

ولكن فلوبير يستطيع الاحتفاظ بتوازنه ، فلا يجن ولا ينتحر ، وكان الفضـــل فى ذلك لثلاثة من اصدقائه التقليـديين ، أرنست شـــيفاليير والفرد ليبورتفين وماكسين كامب .

وبينما كان لجوستاف اهتمام متشائم بالأدب والموت كان لهؤلاء الشبان الثلاثة اهتمام مخلص بالأدب والحياة، وكان شـــيفاليير يجمع فى شخصه بين الشـــاعر والسياسي . اذ كان رجلا رأسه فى السحب وقدماه على الأرض . وكان ليبورتفين ابنا لتاجر ناجح ، وقدر له شخصيا أن ينجح فى أعماله . ولعل من الطريف أن تعلم أن ليبورتفين خال موباسان . وأما دى كامب محرر مجلة باريس فقد نصب نفسه مرشدا لفلوبير وهاديا ، لا فى مضارب الخيـــال وحدها ، بل وفى مسالك العالم أيضا . فأخرج فلوبير من عزلته وأغراه بمقابلة الناس واستصحبه فى رحلته الى الشرق عام ١٨٤٩ .

وكانت هذه الرحلة الى المشرق من الفصول الممتعة فى حيـــاة فلوبير (لن أنسى قط تلك التجربة . هذه الألوان والأصوات التى سمعتها فى مصر وعلى ضفاف النيل ، وفى سوريا ، وفلسطين ، ومالطة والقسطنطينية) وفتن بالأهرام افتتانا خاصا (حين بلغنا سفح التل الذى تقوم عليه هذه الأهرام أطلقت حصانى كالاعصار. وفعل دى كامب مثل فعلتى ، فلما وقع بصرى على هذه العظمة دار مخى كما تدور الدوامة. وكنا وقت الغروب وقد تبدت الأهرام الثلاثة كلها فى لون وردى وكأنها غرقى فى بحر من الضباء) .

ثلاثة أهرامات وثلاثة أصدقاء وعشيقة واحدة . وكان قـد لقى لويز كولت ، وهى الفتـاة التى عشقها ، فى

معرض الفنان براديير . وكانت شاعرة هزيلة الموهبة جليلة الحسن . ولم يتحمس كثير من أعلام الأدب في باريس لجمال شعرها ، ولكن شعر جمالها يلهيهم ويأسر لبهم . وكان فيكتورهيجو محزونا لبتر ذراعي فينوس ميلو فذكرت له لويز ان ذراعي التمثال الشهير قد عثر عليهما .

فسألها هيجو دهشا أحقا عثر عليهما ؟ أين هما ؟ فأجابت « تحت كمى » .

لقى فلوبير الخجول هذه الحظية الشابة الجريئة فأسلم اليها قلبه وعقله وقدرته كلها على التمييز بين الأشياء . « انها ليست أجمل نساء باريس وحسب بل هي أذكاهن كذلك » كذلك قال في عمى العاشق وغفلته .

لكنه لم يبن بها قط لسبب واحد هو أن أمه كانت قد رفضت مثل هذه الزيجة فأبوه كان قد مات ، ويقيم فلوبير الآن مع أمه في (كرواسي) على مقربة من روان ، وكانت مدام فلوبير سيدة ضئيلة عصبية المزاج تحب ابنها حبا أثرا (فلن تشركني فيه أمراة اخرى ، ولو كانت من ملائكة الجنة) .

ولكن فلوبير كان يبغض الزواج هو أيضا . فهو لا يضن بأى غال لديه الا أن تستأثر بجسمه امرأة . فجسمه ذاك ليس غير خيال نفسه ، فهو كان يعيش في عالم الأفكار لا عالم الأشياء وهو القائل (لم يحدث قط أني احتضنت امرأة حقا ، ولا لويز نفسها وكل ما انضمت عليه ذراعاى انما كان خيال الحب وليس الحب نفسه) .

ومع ذلك فقد كان خيال الحب ذاك من القوة بحيث

أثر فى طريق حياته كلها . فهو يجود أسلوبه الأدبى بالهام لويز ويقدم على كتابة سلسلة من القصص قدر لها أن تقفز به الى الصف الأول من بين الخلاقين فى أدب العـالم .

ومع ذلك فان وحى الحب واخلاص الصداقة لم يكونا غير أخيلة عابرة فى عالم أفكاره .. ذلك ان فلوبير رجل متوحد أساسا ، يحيا مع أفكاره فى خلوه . فهو يقطع ما بينـه وبين لويز وما بينه وبين أصـدقائه الثلاثة . وينسحب الى خميـلة عبقريته . وكان سليط اللسان سليط القلم . فاذا تقدم اليه دى كامب بنصيحة عملية بشأن نشر كتبه حمل النصيحة على محمل الاهانة (انى لا ألومك على نشر تواليفك . واشكرك على النية الطيبة التى صدرت عنها نصيحتك فى شأن نشر تواليفى . ولكن جنونك يبعثنى على الضحك ، لقد اختلفت المسالك بك وبى فنحن لا نبحر فى قارب واحد . فليهد الله كلا منا الى حيث شاء . فيحملك الى مرفأ أمين ويقذف بى فى عرض البحر) .

وهكذا ترك صحابه وخلصاءه وعشيقته ، ووجه قاربه نحو منفسح البحـــر الطليق . بحر حياة أدبية عنيفة لا تهدأ .

- ٣ -

كان فلوبير فى أدبه مزيجا نادرا من الكاتب الخيالى والواقعى ، فهو يقول عن نفسـه : انى لأنطوى على رجلين متميزين ، احدهما يحب الضوضاء والانشاد والتحليق كما تحلق النسور، ويحتفل برنين الديباجة وذرى الفكر

السامقة . والآخر يبحث عن الواقع ويوغل فيه أعمق مايستطيع ، ويحفل باستخراج الحقائق الصغيرة كما يحب استخراج الحقائق الكبيرة ، ويتمنى لو يضع يدك على ما يخرج من الأشياء . هذا الشخص ينعم بالضحك ويستمتع بحيوانية الانسان .

كان فلوبير طوال حياته يتأرجح بين عالمى الخيال والواقع . كان أحيانا يحلق الى ذرى الخيال وأحيانا أخرى يسف حتى يوغل فى وحل الوجود المادى .

ومهما يكن العالم الذى يتفق له أن يعيش فيه الآن ، فانه يتوق أبدا الى العيش فى عالم آخر . فهو لا يتحدث قط عن الكتاب الذى يؤلف ، بل هو دائما يتحدث عن الكتاب الذى سوف يؤلفه بعد هذا ، فكانت سلسلة مؤلفاته لذلك تعاقبا متصلا مطردا بين الواقعى والخيالى، مدام بوفارى . التربية العاطفية. اغراء سانت انتونى. بوفارو بكيشيه . ولم يكن هذا التعاقب مجرد اتفاق ، بل جاء نتيجة صراع داخلى دائم بين الفنان والعالم ، الشاعر والساخر القاسى ، مواسى البشرية ومزدريها .

لكنه كان دائما فيما يكتب الفنان السامق ، وهو يهتم باللفظ أول ما يهتم . فاللفظ عند فلوبير ليس مجرد أداة للفكر ، بل هو وحدة حية لها صوت وعبير وشخصية وروح . وكان يصقل صفحاته ويعيد صقلها ، وكان كثيرا ما يهب يوما بأكمله ، لينقح عبارة واحدة ، حتى يستحيل مجموع الكلمات على هذه الصفحات وحدة غناء كاملة فهو يتجنب ما أمكن تكرار لفظ بعينه فى نفس الصفحة ، « ان من الخطأ ايذاء أذن القارىء كما أنه من الخطأ ايذاء قلبه » .

لـكنه لا يكاد يحترم عقل قرائه ، فالعقل البشرى غبى أتعس غباء ، وكان هذا الدرك من الغباء البشرى ينفره ويستهويه فى آن معا . فهو يدرسه كما يدرس طبيب مخلص مرضا كريها لعله يستطيع علاجه بعد أن يتبين سببه . فاذا قيل : ان « ارنست رينـــان » كان أبدا يحاول أن يجد شيئا من الحكمة حتى فى الأحمق فان جوستاف فلوبير كان يحاول أبدا أن يكشف شيئا من الحماقة حتى فى الحكيم . ولكن الطبيب فى فاوبير هو الذى يحب أن يتعمق الشخصية الآدمية ، مصرا على اجراء كشف طبى فترى كامل ، لكى يكشف عن المرض ويستأصله فور ظهوره .

وفي جهوده للكشف عن المرض واستئصاله ، مرض الخسة الرأسمالية ، تفكر وكتب أعظم قصصه ، مدام بوفارى ، وكانت هذه القصة قصة روح خاطئة مثلها مثل فاوست جيته . ولكن اذا كان بطل جيته الأخرق يهتدى بغريزته الى الطريق الصحيح الأوحد . فان بطلة فلوبير المتدبرة تضللها غريزتها وتغريها بالطريق الخاطىء الأوحد . طريق الابتعاد عن الملل والسعى الى الموت عن طريق الاسراف على النفس .

قصة (اما بوفارى) هى صورة واقعية لروح خيالية. كانت (اما) ابنة فلاح رحيم شهوانى مرح مثقل بالخيلاء بعيد عن الدين . فربيت منذ طفولتها الأولى تربية أغرتها بالعيش وراء الأفق « ففـاكهة الحقل التالى .. أحلى دائما فى خيالها من فاكهة حقلها » .

وقد نشأت في دير . فطعمت غزلا مرهقا من تلك الأســـــاطير الدينية التى كان يسمح لها بمطالعتها أيام الأحد من باب التسرية ، وعادت من الدين الى المزرعة

فوجدت نفسها مرة أخرى فى وسط بيئتهـا الدميمة واحلامهـا الجميلة ، فهى تتوق الى هجران أصوات الحظائر والحقول ومناظرها وروائحها . تريد لترحل من هنا الى مكان آخر ، تتوق لأن ترى أحدا ييسر لها هذه الرحلة ، فيظهر فى حياتها شاب ، شارل بوفارى ، وهو ليس حسنا ولا سيئا ، ولا ماهرا ولا غبيا . هو مجرد رجل عادى مغمور لا طرافة فيه ، لـكنه فى نظر (اما) فارس الأحلام الذى سـينقذها من سأمها .. فتتزوجه ، ولكن ماهى الا لحظة بعد الزواج حتى تعود الى أحلامها القلقة لأن بوفارى يمثل هذا المكان العادى، و (اما) دائمة الحنين الى المكان الآخر الرائع .

وهذا رجل آخر قد اقبل لينقذها يسمى (ليون) وكان شابا رشيقا خياليا . قضت معه لحظة من السعادة الفائقة ، واصابت معه نظرة مختلسة الى السماء فيما وراء الأفق .. ثم تركها .

فيعود اليها الواقع من جديد اثقل واكأب واخنق الأنفاس مما كان . وتمضى الأيام متثاقلة كأنما أقدامها قد شدت الى أثقال من الرصاص ، حتى أحلامها قد صارت الآن مثقلة بملالة متصلة .

ثم يأتى العاشق الجديد فتلقى بنفسها بين أحضانه أشد ما يكون التهالك ، انها تدخل الى شىء ساحر ، كل شىء فيه عاطفة ونشوة وهذيان تحوطهـا مساحة شاسعة من الزرقة ، ويرف فى أفكارها رائع الخيال .

واما الوجود العادى فيبدو بعيدا مسفا فى الظلال التى بين هذه القمم ، وتقضى حلمـا جديدا مع عاشقها الجديد (رودلف) فيسافران معا فى الخيال الى بقاع

ثانية الى اسبانيا بقيثاراتها ، وايطاليا بسمائها الزرقاء ، والشرق بمآذنه وأسواقه لكن هذا الحلم أيضا سرعان ما يتبدد . اذ ينشأ بينها وبين رودلف شجار ثم تركن (اما) الى الحقائق التى تقع قريبا من هوة اليأس . ان عالمها الحقيقى لا يحتمل ، وعالمها الخيالى قد تحطم ، ولم يبق غير شيء واحد هو النسيان . فتتلمس هذا النسيان فى حمى انفعال شهوانى . فتقابل (ليون) مرة أخرى وتلقى بنفسها بين أحضانه ، لا بوصفها عاشقة هذه المرة ، بل بوصفها محظية. فهى تحلم الآن لا بأن تفر من الواقع ، بل بأن تفر من نفسها .

وهكذا تسقط من هوة الى هوة من (ليون) الى عازف أوبرا . من عازف الأوبرا الى كاتب عقود . ثم توقفت حتى عن الأحلام ، لقد أصبحت حياتها فرارا مختلطا يائسا مفزعا .

ثم كان الاختيار الأخير بين السجن والقبر . واختارت (اما) القبر لأن الحماة ليست الا نكسة الى الواقع ، أما الموت فهو الرحلة المخيفة المرجوة وراء الأفق ، الرحلة العظمى الأخيرة الى أرض الخيال .

لقد ظلت (اما بوفارى) خيالية حتى النهاية .

— ٤ —

لما نشر فلوبير قصة (مدام بوفارى) نعى عليه النقاد ، ووصفوه بأنه خطر على الأخلاق ، فقبضت عليه الحكومة الفرنسية بتهمة التمكين للأدب الخليع من التسلل الى الجمهور . وبعد محاكمة عاصفة حكم ببراءته ، ولكن ذلك لم ينجه من توبيخ شفوى توجه به اليه رئيس

الجلسة ، وكان على جمهور الفرنسيين أن يقنعوا كلا من النقاد والحكومة ان مدام بوفارى صورة صادقة للحياة. وانهـا فى أمانتها مع الحق ليست أكثر بذاءة من وصف صادق لكتلة من كتل الجليد الهـاوية . وكان فلوبير لا يحفل بعواصف القدح ولا زوابع المدح . كان يجلس كما يجلس راهب معتصم فى منزله ، ويسخر بالعـالم ويمتعه على التعاقب ، ليصير الى حالة عقلية خير من حاله . انى ساخر متهكم لاشك فى ذلك ، ولـكن السخرية هى الملح الذى يمكن البشر من أن يستمرىء تفاهة الحياة .

كان فلوبير أشـد رجل فى أوربا عزلة ، كمـا يصفه أصـدقاؤه ، كان ينفق الجزء الأكبر من السـنة فى (كرواست) لا يذهب الى باريس الا لماما ، ليتحدث الى جورج ساند ، أو يتعشى مع فيكتور هيجو ، وقلة من أرواح توائمه .

كان ضخم الجثة ، له شارب قرصان ، وعينا طفل ، ومع أنه كان يحب لقاء زملائه اذا عرضت فقد كان يفضل الوحدة على الاتصال بهم ، وكان يقطن منزلا طويلا واطئا يقـع على السين ، وكان لحجرة مكتبه خمس نوافذ « فحيثما انقل بصرى أرى السماء العالمية » .

منزل قديم متين ، ورجل عجوز متين ، ذو عادات مستقرة متينة ، يستيقظ فى الساعة العاشرة بانتظام ، فيقرأ خطاباته وأوراقه ، ويتناول فطـوراً خفيفـا فى الحادية عشرة ، ثم يسير متنزها على ضفة النهر ، ويعود فى منتصف الساعة الواحدة فيجلس للعمل حتى الساعة السابعة ، ثم يتناول عشاءه . ويتنزه نزهة قصيرة فى الحديقة ، ويعود الى مكتبه ليقضى فى العمل فترة أخرى

تستمر حتى بعد منتصف الليل .

انه يكاد يعيش بكليته بين كتبه « ياله من رجل عجوز خشن ، يبغض بني الانسان » كذلك كان يقول عنه جيرانه ، لكنهم لم يعرفوا ان هذا المبغض لبني جنسه ، قد ضحى بمعظم ثروته لبعض أقاربه الأبعدين الذين كانوا احوج اليه منه .

وهكذا عاش وحيدا يبذل هباته لا ينتظر عليها شكرا، ويكتب قصصه لا يبغي منها شهرة . انك اذا حللت الانسان وجدت آخر الأمر انه يحيا في أفكاره. وهذا هو المكان الذى يجد فيه متعته الوحيدة ، ويتلقى فيه جزاءه الوحيد ، وكان وسط أفكاره هذه يكتب قصته (بوفارو بكوشيه) فأخذه الموت بيمينه ، وقاده الى مشاهد جديدة لتواليف أعظم .

ناثانيال هوثورن

(١٨٠٤ – ١٨٥٤)

– ١ –

كانت حياة هوثورن رمزا شعريا للخلق ، كما كانت مخلوقات هوثورن رمزا شعريا للحيـــاة . ولد لقوم يجوبون البحر ، فجلس منعزلا على الشاطىء ، يسجل فى هدوء ذلك الصراع الأبدى بين الرمل وموج الشاطىء. ولقد يبدو هذا العزوف فى نظر أصحاب الشخصيـات النشيطة اضاعة للوقت ، ونكوصا عن مواجهة المشكلات الخطيرة التى تواجه الكبار فى العالم . على ان « عبث الأطفال هذا – كما يقول هوثورن – يغدو رائعا مادام على هذا النطاق الواسع » .

وبينما كان الآخرون يحاولون فى استماتة ان ينقشوا أسماءهم فى الرمال ، كان هوثورن يرقب تدافع الأمواج لتعفى على آثارهم . « ارسم الحروف (على الرمال) ضخمة ، بحيث تزيد على ان تقاس بخطوتين أوثلاث . وليكن الحفر عميقا كى يبقى على الزمن ! ان الساســة والمحاربين والشعراء لم يستنزفوا قواهم لهدف خير من هذا الهدف . فهل حققوه ؟ عليك اذن أن تعود فى خلال ساعة أو ساعتين ، وأن تبحث عن ذلك الاسم الذىحفر عميقا . وستجد ان البحر قد عفا عليه ، وبينما الزمن نفســه يدفع بموجات العفـــاء على أسماء الساســة

والمحاربين والشعراء :

أرهف سمعك انت فان موج الشاطىء يضحك منك!».

وقد صرف عنايته الى مراقبة هـــذه الآثار ، وذلك العفاء على المحاولات البشرية ، والى ان يقـــدم للتاريخ خصائص تلك الحروف التى نقشت فى الرمل قبيل ان تعفو عليها الأمواه .

وكان شديد العناية بنوع خاص بآثار حركة المتطهرين المتداعية فى أيامه . فأدرك كنهها وحفظها من النسيان قبيل أن يحل محلها التفاؤل الطروب الذى ســاد أيام ما بعد الحرب الأهلية .

- ٢ -

وحينما قرر هوثورن ان يكرس نفسه للأدب ، كان يعلم انه قد قضى عليه بحياة الفقر والألم والاهمال . ذلك ان الأدب كان فى أمريكا سلعة غير رائجة ، بل لقد كان قرض الشعر أيام المتطهرين يعد خطيئة . شأنه فى ذلك كشأن لعب الورق أو شرب الخمر أو تقبيــل زوجة رجل آخر سواء بسواء .

وكانت أقدم المسرحيــات الأمريكية ، تتفادى رقابة المتطهرين بأن يطلق عليها تجملا (محاضرات خلقية). على ان الرقابة كانت قد خفت ايام هوثورن الى حد ما ، وان بقيت مهنة التأليف من المهن غير المأمونة ، غير ان هوثورن كان على استعداد لأن يقوم بالمجازفة . فانه من قوم مغامرين ، فلقد كان آل هوثورن يقودون السفن منذ أجيــال خلت . وكان دم البحر يجرى فى عروقهم

وكان الاقدام على المخاطر المجهولة طبيعة ثانية فى هـذه الأسرة .

وفضلا عن ذلك فان التعليم الأول لهوثورن قد جعله غير صالح لحياة الأعمال أو المهن . فلقـد ربى بحيث صار (رجلا انطوائيا) اذا استخدمنا تعبير علماء النفس المحدثين . فكان يعيش فى عالم تفكيره الخاص .

وقد ولد فى بداية القرن (١٨٠٤) وفقد أباه البحار وهو لم يزل طفلا . فاعتكفت أمه مع ناثانيال وابنتيها الصغيرتين فى منزل منعزل فى (سالم) ، وهناك اعتزلوا العالم ، وكأنما قد أغلقت عليهم سـفينة فى وسـط الأطلنطى . بل كان كل فرد منهم يحيا منعزلا عن باقى أفراد أسرته .

لقد قضت تلك الراهبة المتطهرة العجيبة على أطفالها بأن يحيوا فى هذا الدير الصغير العجيب . فكان كل من الأبناء يأكل ويلعب ويقرأ ويتفكر فى حجرة خاصـة ، بحيث اضطر ناثانيال الى أن يخلق عالما من الأشخاص الخياليين ليكونوا فى صحبته .

وكان بالاضافة الى ذلك قد أصيب فى باكر عمره اصابة بالغة فى ساقه ، فأقعدته هذه الاصابة سنوات كثيرة عن مشاركة الأطفال الآخرين فى اللعب . واذ كان حساسا بطبيعته ، متأثرا بتزمت أمه ، فقد كان يقضى النهار بطوله داخل المنزل ، فاذا كان الغسق أو الظلام خرج يتجول فى الحقول ، أو على شاطىء البحر . كان من أثر هذا المسلك انه عرف الطبيعة فى أقتم أمزجتها . فكان طول حياته لايرى العالم الا وقد اكتسى حلة غبشاء أو سوداء . واننا لنجد هذا المزاج واضحا فى كل أسلوبه

الأدبى ، فكانت لغته ذات حلاوة حزينة وكأنها العـالم يغنى لينام .

— ٣ —

التحق فى عامه السابع عشر بكلية بودوان ، وهنـاك قابل اثنين من الطلبة كان لهما أثر فى مستقبل حياته ، هما هنرى لونجفيلو ، وفرانكلن بيرس . ولقد قاسى فى حياته الدراسية ذلك الشقاء الذى يلقاه عادة عبقرى أعمق من معلميه فكرا ، فحصل على درجات صغيرة . فاذا تخرج عاد الى (سالم) وأقام يحلم بالحياة كما قال « بدلا من أن يحيا الحياة » .

وكان يكتب القصص ويقرؤها لنفسه ثم يلقى بها فى النار. لقد عجز عن أن يكون ممثلا فى مسرحية الحياة ، ولم يقنع بأن يظل أحد النظارة ، فقرر أن يكون معقبا شديد الملاحظة . وكان يقرأ اذا كان الصبح ، ويكتب اذا كان العصر ، ويمشى مسافات طويلة اذا كان الليل . وكان ينظر الى الأرض المظلمة ويعمرها بالأشـــــكال والعواطف التى تنتمى الى عصور ماضية والى جيله أيضا.

لقد صار مكتشفا للسر المكنون ، وباحثا فى مجاهل الروح البشرية . فأخذ عظام التـاريخ الجافة فكساها لحما لاينتمى الى هذه الأرض ، شاحبا ولكنه جميل — ثم يقذف بهذه الأشخاص الهشة فى الخطيئة ، ويحلل تصرفاتها بقسوة المتطهر وحنان الشاعر . واننا لنجد هذا الازدواج فى عبقريتـه ، وذلك الصراع الدائم بين تقواه ورحمته ، حتى فى أقدم ما نشر من كتبه وهو مجموعة القصص المسماة (قصص تروى مرتين) .

ومن اشد هذه القصص دلالة عليه (عمود مايو بالجبل المرح) وهى قصة شاب وشابة دخلا حصن المتطهرين بنيو انجلند ، وفى قلبيهما لوثة من الوثنية الهوجاء . فالحياة عند المتطهرين حقيقة صارمة ، ولـكنها عنـد هذين الشابين الوثنيين لاتعدو أن تكون رقصة مرحة . انهما خاطئان ولابد من عقابهما على الخطيئـة . وهكذا بينما هما يحتفلان بزواجهما حول عمود مايو اذ هاجمهما الحاكم انديكوت بجنـــده فجرد عمود مايو من ازهاره وقضى على الزوجين المذعورين بحياة من المشقة الجسدية والانقباض الروحى ، ولكن هنا نجد الشاعر فى هوثورن يناهض المتطهر فيه . فحين أخرج الزوجان من مشهد السعادة قام الحاكم العجوز القاسى برفع اكليل الورود من بين حطـام عمود مايو وقذف به بذات يده فوق رأسيهما . ان الخطيئة الدميمة تجزى بالعقاب . ولكن الها الجميل يجزى بالورود ، وكانت هذه نغمة جديدة فى الأدب الأمريكى .

ولـكن الجمهور الأمريكى لم يكن قد تهيأ بعد لهذا النوع الجديد من الأدب ففشل الكتاب من الوجهة المالية .

— ٤ —

لقد تقدم رفاقه فى الدرس فى مضمار الحياة . فقد صار لونجفيلو استاذا فى هارفارد وصار بيرس عضوا فى مجلس الشيوخ الأمريكى . أما هوثورن فلم يزل يضرب على غير هدى . وحصل على عمل فترة من الزمن هو وظيفة وزان فحم فى جمرك بوستن . غير ان هاريسون قد انتخب رئيسا جديدا للجمهورية ففصل هوثورن من

عمله فى موجة التغييرات التى تلى الانتخابات الامريكية عادة .

ثم استثمر مدخراته ، وكانت تبلغ نحو ألف دولار فى المستعمرة التعاونية المسماة « بروك فارم » واعتقد انه سيستطيع العيش دون الكفاح فى طلب الرزق . وكان هذا العصر يتميز فى تاريخ أمريكا بأنه عصر التجريب . فنبتت فيه كل المذاهب ، الاشتراكية والحركة النسائية والتسامى الفردى والفوضوية والشيوعية وما الى ذلك ، وكان المثاليون على استعداد لأن يعلنوا مقدم عصر سعيد لا شقاء فيه . وكان المنتظر أن تصبح بروك فارم بزعامة مارجريت فولر احدى جنات هذا الفردوس الذى سيقوم فى الأرض . وقد أثبت أعضاء بروك فارم كفاية عملية اذ اختاروا صاحبنا هوثورن — ويا له من اختيار — مستشارا ماليا لهذه المستعمرة .

وهكذا نرى هوثورن فى دور جديد . دور ممول الفلاحين . فألقى بقلمه جانبا وحمل مذراته ، وبدلا من أن ينثر الحبر على الورق صار ينثر السماد على الحقول — فيا له من منظر غير متسنق — منظر ملاك فى كومة من القاذورات . لقد تحمل هذه الحياة قرابة عام . ثم عاد الى (سالم) بعد اذ فقد كل ماله فى تجربة بروك فارم . ولكنه قد وجد فيها مادة لقصته الوحيدة ذات الألوان (قصة بليثديل) ويختلف أشخاص هذه القصة عن الأشخاص القاتمة فى قصصه الأخرى فى انهم ينعمون بدفء الشمس ساعة الظهيرة .

انه الآن فى الثامنة والثلاثين من عمره ، شخصية بارعة الجمال ، عديمة الجدوى الى درجة تبعث على الرثاء . لقد كان له جسم هرقل ورأس أبولو ولكن عينيه

كانتا أشبه بعينى طفل مفزع ، أو غريب ذى جنة أتى من أرض غريبة . فكان يجفل من صحبة الناس . وكان أكثر الفة بأشخاص قصصه منه بسكان (سالم). فاتخذ لنفسه مقعدا متوحدا علىالمرتفعات ، وشرع يحول الحياة الى قصص . ولكنها قصص أكثر حيوية من الحياة ذاتها.

لقد كان مشغوفا بفنه بحيث أحب ان يعيش دون ان يزعجه العالم أى أزعاج أو يتطفل عليه أى تطفل . وكان اذا اقتحم عليه أحد عزلته التأملية امتعض « فى مقت باطنى ، وفرار لايلوى على شيء من مقدم هـــذا الشخص . كأن ذاتا أخرى قد أفزعتنى ، فهرعت أجرى على الصخور ، واعتصمت بمنحنى جـدول ينتمى الى بحق الساعات التى خلوت فيها اليه » .

ومع ذلك فان عزلته لم تكن كاملة . فقد تزوج صيف عام ١٨٤٢ من (صوفيا بيبودى) وهى المراة الوحيدة التى قدر لها ان تمنحه سعادة حقة . وانتقلا الى (كونكورد) مدينة الذكريات الثورية والأرواح الثورية من امثـــال برنسون الكوت وهنرى ثورو ورالف والد وايمرســـون وايلرى شانتج . وهنا شعر بشيء من الألفة فقد كانت الحياة هنا تشبه حياته من وجوه كثيرة ، ولكنه حتى فى هذا المكان لايخرج عن تبـــاعده واستحبائه الا فى أندر الأوقات ، وقد استأجر منزلا متهدما فى أحـــد الأركان المنزوية فى المدينة . وكان يلتف فى رداء النـــوم الممزق ويقول « قد لا أصير مالكا فى يوم من الأيام ولكنى أكبر مالك للثياب المهلهلة فى البلاد» وأقام على رسم شخصيات وثنية فى اطار متطهر .

وظل اربعة اعوام لايكاد يستطيع المضى فى عمله معتمدا على ماتدره عليه القصص من ربح . ثم واتاه الحظ .

فلقد استعاد الديمقراطيون رئاسة الجمهورية ، فعين هوثورن مشرفا على جمرك (سالم) وكان راتبه ١٢٠٠ دولار فى السنة . وكان هذا مبلغا خرافيا فى ضخامته بالقياس الى (سالم) عام ١٨٤٦ .

على ان حظه السعيد قد تخلى عنه عام ١٨٤٩ . فقد انتخب (زخارى تايلور) رئيسا للجمهورية ، وكان معنى هذا فصل هوثورن من الجمرك . وكانت كارثته تبعث على الرثاء ، فانه ليشعر بأنه شيخ مسن مع انه لم يتجاوز الخامسة والأربعين وكان عليه ان يعول زوجة وطفلين ، دون ان يكون لديه مدخرات يركن اليها ، أو أمل فى الحصول على منصب جديد . ولكنه نجا بفضل ثلاثة أمور ، شجاعة زوجته ، وكرم أصدقائه ، وايمان الناشر بقدرته على كتابة قصة من عيون الأدب .

لقد تلقت زوجته نبأ فصله من الوظيفة كما تتلقى أسعد الأنباء . فابتسمت له فى شجاعة وقالت « سيتحقق لك آخر الأمر الفراغ الذى تستلزمه كتابة تلك القصة العظيمة » وأقامت مدفأة فى غرفة مكتبه وعنيت بأناقة المكتب ، واعانته على ارتداء ملبسه المريح وهيأت له أن يجلس ويكتب ، ثم ذهبت الى الطابق الأعلى وعادت وفى يدها مائة وخمسون دولارا من الذهب البراق ، وهو مبلغ كانت قد ادخرته سرا لمثل هذه المفاجآت .

وما هى الا أيام قليلة حتى علم هوثورن على حين بغتة انه غنى بحب أصدقائه ، كما هو غنى بحب زوجته واخلاصها ، فقد تلقى صكا بمبلغ ضخم مصحوبا بخطاب مؤثر ، ممهور بتوقيع جورج هيلرد ، وهو احد الأعضاء فى جماعة كمبردج ، التى كان يراسها لونج فيلو . وقد جاء بخطاب هيلرد مايلى « لقد خطر لى كما خطر لبعض

اصدقائك انك قد تكون الآن بحاجة الى معونة مالية صغيرة . لذلك فقد جمعت المبلغ المرفق من أولئك المعجبين بعبقريتك المقدرين لشخصيتك ... وانى لأعلم فيك حساسية المزاج . لكن لا تتحدث عن التزاماتك . ولا تفكر فيها . وانما نحن قد أدينا جزءا صغيرا جدا مما نحن مدينون به اليك ، لما لك على الأدب الأمريكى من إياد .. فلا تدع أى ظل من الألم أو اليأس يتسرب اليك أيها الصديق العزيز. ان أصدقاءك يذكرونك ولن ينسوك ابدا .. » ورد هوثورن على هيلرد بخطاب قال فيه « لقد اثار خطابك دموعي على نحو لم تفلح متاعبى فى اثارته .. لقد كان ثمة كثير من الحلاوة وشيء غاية فى المرارة يمتزجان فى هذا الدمع نفسه .. ان المال ياعزيزى هيلرد سيمهد سبيلى وقتا طويلا . وليس من سبيل يستطيع به المرء الاحتفاظ بكرامته بينما هو يعتمد على كرم أصدقائه الا بأن يتخذ من هذا حافزا له على بذل أقصى الجهد حتى لا يحتاج الى معونتهم مرة أخرى » .

ومضى فى كتابة قصته باذلا فى كتابتها أقصى جهده ، لكنه لم يكن مؤمنا بنفسه . زاره فى (سالم) ذات يوم ناشره جيمز . ت . فيلدس .

فوجد هوثورن فى مكتبه يحوم فى حيرة حول مدفأته، فسأله الناشر « هل اعددت شيئا للمطبعة ؟ » .

فأجابه هوثورن «« كلا ! كيف يجازف ناشر بطبع كتاب لى وانا اوفركتاب أمريكا حظا من كراهية الناس!»

« انى انا هذا الناشر » .

فقال هوثورن مؤكدا « ولكنى فى الواقع ليس لدى

ما يستحق النشر » .

ففتح فيلدس الباب وكاد أن يخرج فأخذ هوثورن من أحد أدراجه حفنة من الأوراق المخطوطة وقال فى تردد « لعلك تتنزل بتصفح تلك الحزمة من القمامة ».

وأخذ الناشر الحزمة معه . وفى تلك الليلة كتب خطابا حماسيا الى هوثورن . لقد كان المخطوط الذى فرغ لتوه من قراءته هو مشروع ملخص قصـــة « الحرف الأحمر » .

— ٥ —

ولا تبدأ حوادث (الحرف الأحمر) من البداية. فان هوثورن يستخدم فيها طريقة رواية القصة من آخرها. يبدأ المشهد الأول باطلاق (هستر برن) من السجن . وهذه هى هستر المرأة الشديدة الحنين الى الحب ، والشـــديدة القدرة على معاناة الألم ، تخرج من ذلك الحصن المظلم ، وعلى ذراعيها طفل عمره ثلاثة أشهر . وعلى صدر جلبابها يظهر حرف (ز) بالقماش الأحمر.

وكانت رزينة المظهر ، كليمة الفؤاد ، سارت الى مكان التشهير . وكان فى أحد أطراف الحشد المتطلع رجـل ضئيل . وكان له جبين ذكى وعينان قاسيتان . وكان هذا الرجل(دكتور روجرشيلنجويرث) هو زوج (هستر برن) لقد غاب عن موطنه عدة سنين وهو الآن غريب فى بلده .

وكان قسيس المدينة المحبوب (آرثر ديمسدال) شابا يربو اخلاصه على شجاعته . وهو يشق لنفسه طريقا فى خلال الحشد ، ويقف الى جانب (هستر) ويلح عليها

ان تذكر من زنى بها . ولكن (هستر) ترفض فى اباء ان تستسلم لالحاحه .

ثم لايلبث الكاتب أن يبدأ فى نسج العقد والأحابيل التى تعقد حيـــاة الأشخاص الأربعة الرئيســـيين وهم (هستر) ودكتور (شـــيلنجويرث) و (آرثر ديمسدال) و(بيرل) الصغيرة ، وفى الليلة التالية لاطلاق سراح (هستر برن) من السجن تمرض طفلتهـــا ويستدعى الدكتور (شيلنجويرث) .

فتقول (هستر) هامسة « لقد اخطأت فى حقك خطأ بالغا » .

فأجاب زوجها « لقد أخطأت أنا كما أخطأت ، فأنا رجل من رجال الفكر ، وأنت امراة من أهل الجمال ، فبأى حق صرنا زوجين ؟ » .

ان(روجر شيلنجويرث) يفهم ، ولكنه لايصفح . فان عقله وقلبه مختلفان فى سبيليهما . فهو مصر على معرفة من فسق بامرأته ومعاقبته .

وتتعيش (هستر) من أشغال الابرة . وكان أهل الفضل فى المدينة مصرين أول الأمر على أن ينزعوا منها طفلتها ، ابنة السفاح ، ولكن يتغلب (مستر ديمسدال) عليهم أخيرا فيدعون الطفلة لأمها .

فيقول (روجرشيلنجويرث) باسما « انك ياصديقى تهتم بهذه المراة الفقيرة اهتماما عجيبا » .

وتتدهور صحة (مستر ديمسدال) . فيندب دكتور (شيلنجويرث) نفسه لمعالجته. ويساكن القسيس ، لأنه مصر على أن يتبين اسرار قلب (ديمسدال) . ولتلاحظ

كيف ان الكاتب قد جمع بين الرجلين جمعا جثمانيا لكى ينسج خيوط انفعالاتهما العقلية والروحية. ويغدو (شيلنجويرث) صورة مادية لضمير القسيس المذنب .

وان (ديمسدال) لينظر الى (شيلنجويرث) فى فزع متزايد ، ولطالما حاول أن يعترف بخطيئته من فوق المنبر ، ولكن شجاعته كانت تخونه دائما.

وفى سكون الليل ذات مرة ، صعد الى مكان التشهير حيث وقفت (هستر) يجللها العار . وكان يعتقد ان كل الناس نيام ، ولكن يراه ثلاثة أشخاص (هستر وبيرل) وكانتا عائدتين من منزل امرأة تحتضر ، ودكتور (شيلنجويرث) .

وفى رثاء ساخر: يصحبه الطبيب الى المنزل « لاينبغى لك أن ترهق نفسك فى الدرس الى هذا الحد أيها السيد الطيب ديمسدال » .

وهكذا أحكم نسج القصة بحيث صارت الى نموذج محدد يبعث على الأسى . ثم تتحرك القصة مسرعة الى ذروتها التى لامفر منها ، فترسم (هستر) خطة للفرار مما يحدثه (روجر شيلنجويرث) فى نفسها من أثر قاتل. فتزمع السفر الى انجلترا ومعها (ديمسدال وبيرل) .

ولكنهم يجدون أن (شيلنجويرث) لا ينهزم بهذه السهولة . فقد علمت (هستر) انه أيضا قد حجز تذكرة على نفس السفينة الذاهبة الى انجلترا . ولتلاحظ مهارة الكاتب فى ان هذه المعلومات تأتى فى يوم من أيام الاجازات البالغة الاهمية ، اليوم الذى اختير فيه (ديمسدال) ليلقى موعظة الاختيار تكريما للحاكم المعين حديثا .

وهكذا تلتقي فى يوم واحد أعلى ذرى مجد (ديمسدال) وأبعد أغوار مأساته . فلم يعد فى وسع (ديمسدال) ان يخفى خطيئته مع (هستر) انه ليفضل الاعتراف الآن بما يستتبعه من عار ، على عذاب المستقبل الذى يصبه عليه (شيلنجويرث) . وهو يتعمق أبعد أغوار روحه .

وهكذا يلقى (ديمسدال) موعظة الاختيار للجمع الذى يعبده ، ثم فى حركة مسرحية يرقى مكان التشهير ومعه (هستر وبيرل الصغيرة) .

ويصيح قائلا « ياشعب نيو انجلند ، اخيرا واخيرا جدا ، أقف حيث كان على أن أقف منذ سبع سنين .. »

ثم تقبل لحظة الالهام فى المأساة :

فهو يستمر فى صوت رنان « انظروا الى الحرف الأحمر الذى تلبسه هستر ... ان لى أيضا حرفى الأحمر » .

ثم يمزق الرداء الكنسى عن صدره . فيبدو لحمه وقد نقش عليه حرف (ز) باللون الأحمر .

فلما نظر الدهماء اليه نظرة العجب والدهشة والرثاء ، مال برأسه على صدر هستر . لقد أدى حياته ثمنا لخطيئته .

- ٦ -

ان (الحرف الأحمر) ، كمعظم روايات هوثورن وقصصه القصيرة ، تمثل التاريخ الروحى لنيو انجلند. الصراع بين الحب المتطهر للدين ، والدين الوثنى للحب. ولكن الكتاب ليس مجرد صورة لنيو انجلند . فانه كذلك

صورة هوثورن نفسه ، ذلك الرجل المتطهر الجسم ، الوثنى الروح . فان فى أشخاص الرواية جميعا شيئا من هوثورن . قسوة القضاة الذين عاقبوا (هستر برن) على خطيئتها مع (آرثر ديمسـدال) وعدم صـفح (شيلنجويرث) الذى نصب نفسه للانتقام كأنه تجسيد لضمير القسيس الشاب . وتردد (ديمسدال) الذى كان يخفى قلبا يمور باللهب تحت رماد العرف الاجتماعى ، وتحدى (هستر برن) التى كانت تحمل رمز آلامها وكأنه رمز على التكريس يبارك ثوب حبها .

ان هوثورن فى كتـابه يمثل نوعين من الخطيئة : الخطيئة التى يرتكبها الحب ضد العرف الاجتماعى . والخطيئة التى يرتكبها العرف الاجتماعى ضد الحب . ويرى هوثورن أن الخطيئة الثانية هى أشد الخطيئتين نكرا. انهوتورن الشاعر يحاول أن ينفصل عن هوثورن الواعظ . فلقد انتهى أوان التطهر فى أمريكا ، ولابد أن أن يحل محله شيء جديد . ولايدعى هوثورن انه يعلم هذا الشيء الجديدعلىالتحديد. ولعله يتمثل فىشخصية بيرل الصغيرة ، تلك الثمرة البريئة الأثيرية غير المتميزة للتطهر والوثنية ، جميلة ولكنها سريعة الزوال ، كأنها وميض شعاع الشمس يتراءى فى حلم ، ولـكنها تبشر بشيء أكمل وأكثر تجاوبا مع قلب العالم من كلا أبويها. لقد عاش هوثورن فى بواكير التاريخ الأمريكى بحيث لم يكتب قصة نضج بيرل الصغيرة . فنهض بهذا الواجب قصاص آخر فيما بعد .

يمثل هوثورن عصر انتقال فى تاريخ أمريكا العقلى . وهو ينتمى الى أولئك المجددين العقليين الذين يحاولون الفكاك من أخطاء الماضى . فأخذ فى الارتياب فى الصـورة

الكلوينية القديمة للجنس البشرى ، التى تمثل جمهورا من المخلوقات الخاطئة وقع بين نارين ، الآمر بالكدح والعناء فى السماء ، والجلاد القاسى فى جهنم . وكان هوثورن ابن المتطهرين ، وكان اجداده قد شنقوا الكويكريين وأحرقوا الساحرات ، ولكنه كان كذلك أبا الثائرين . فالتحليل النهائى يكشف عن انعطافه الى الضحايا لا الى القضاة او السجانين . فهستر برن هى أنبل أشخاص (الحرف الأحمر) واوفرهم حظا من العطف .

ولكن هوثورن لم يزل يتحسس طريقه . وهو لم يطمئن بعد الى الأرض التى يقف عليها . فهو كأشخاصه يحيا فى عالم غامض بين النور والظلام . فالأشياء غير متميزة والمسافات غير محددة ، والأفق محفوف بالغمام. وليس من حد فاصل تنتهى عنده الأرض ، وتبدأ عنده السماء . غير انه يعرف شيئا واحدا : هو ان اخطاء الماضى ستتحول فتصير آمال المستقبل « فى عصر أزهى، فى زمن السماء نفسها ، ستتكشف حقيقة جديدة لاقامة (الجنس البشرى) على أساس من السعادة العامة اكثر صلابة » .

– ٧ –

ويمكن ايجاز باقى حياة هوثورن فى كلمات قليلة ، حين انتخب (بيرس) لرئاسة الجمهورية ، عين القصاص الذى كان رفيقه فى الدرس قنصلا بليفربول وكان هوثورن يحيا خارج البلاد حياة العزلة عن المجتمع التى كان يحياها فى وطنه . فألف بين نفسه وبين تاريخ انجلترا ، بدلا من أن يؤلف بين نفسه وبين شعبها ؛ فلما انتهت فترة اشتغاله فى القنصلية سافر الى ايطاليا،

وهناك أيضا عاش فى الماضى أكثر مما عاش فى الحاضر. ثم عاد الى امريكا والى المكان الذى كان يألفه أشد الألفة، وهو الحدود بين الماضى والحاضر ، كما تتمثل فى حياة شعب الأقاليم .

وقد بلغ من انغماسه فى مشكلات مسرحياته الأقليمية انه لم يكد يحس بالمأساة القومية التى كانت تمثل أمام عينيه. فلما نشبت الحرب الأهلية ، هزكتفيه استنكارا وقال « انى أوافق على الحرب ، لكنى لا أدرى ماذا نحارب من أجله » .

على انه أيضا كان يخوض غمار حرب ـ حرب الروح البشرية لتخلص من أسر البيئة . وقد صور هذه الحرب فى قصة (The House of the seven Gabies وفيها تنسج خطايا الآباء شبكة تحول بين أبنائهم وبين السعادة . وعاد الى هذه الحرب فى The Marble Faun وفيها يبعث الى الحياة أحد مخلوقات الماضى نصف الآدمية ، وسط المشكلات الانسانية الخطيرة فى الزمن الحاضر . وهو موضوع هوثورن الأثير ، موضوع الخطيئة والعذاب . وفى نهاية حياته تماما كان فى شغل بحرب أخرى لم تنته بعد ، هى حرب الروح ضد أحكام القدر فى قصة (دوليفر) .

وقد حاول فى هذا الكتاب أن يهتدى الى سر الحياة ، وهزيمة الموت ، والركب الانسانى العالمى الذى يمضى الى الخلود .

وكان من سخريات القدر ان هذا القصاص الفيلسوف قد مات فى نفس الوقت الذى كان يبحث فيه عن الحياة الخالدة (مايو سنة ١٨٦٤) .

وانقضى بموته عصر عقلى من التاريخ الأمريكى .

وليم ماكس ثاكرى

(١٨١١ - ١٨٦٣)

- ١ -

ولد فى كلكتا ، وفقد أباه وهو فى الخامسة ، فأرسل بحرا الى انجلترا ، ليحيا مع عمته بشزويك ، وكان طفلا غريب المنظر ، أشبه بثمرة اليقطين يحملها عود من اللوبياء ، فقد وضعت عمته قبعة زوجها على رأس الصبى الصغير - وهى قبعة ضخمة شيئا - ولشد ما أفزعها ان رأسه ملأها تماما. وأخذته الى طبيب أسرتها ليفحصه ، فطمأنها الطبيب بقوله : « لاتراعى فللصبى رأس كبير ، ولكنه راس عامر » .

ومع ذلك فان رأس وليم الصغير ، ذلك الراس الكبير قد استغرق زمنا طويلا حتى ينضج ، فكان فى مدرسة شارترهوس (وهى المدرسة التى التحق بها تلميذا فى القسم الخارجى) فى مستوى يقل شيئا عن مستوى رفاقه . وكتب عنه زميل له فى فرقة الدراسة يدعى جورج فينابلس يقول « مع انه لبث هناك بضع سنين ، فانه لم يبرز فى الفصل ولم ينبغ فى الملعب » .

ومع ذلك فان هـذا الفتى الصغير الوديع ، قد اظهر حتى فى هذه الفترة جراة على الفكاهة الجافة التى سوف يمتاز بها فى قابل أيامه . كتب الى أمه فى كلكتا يقول « انى أحب مدرستى ، فما أكثر الصبية

الطيبين الذين ألعب معهم ، ثم أضاف استدراكا خبيثا هو : بالمدرسة ٣٧٠ تلميذا ليتهم كانوا ٣٦٩ » .

وكان يكتب بانتظام الى أمه وزوجها الماجور سميث وكان دائما يعترف لهما بمدى كسله اليوم ، ومدى جده غدا . ولكن هذا الغد المجد لم يأت أبدا . وبعد اذ تخرج فى مدرسة شارترهوس كان لايزال بحاجة الى تعليم اضافى يعده لكمبردج فقام بذلك زوج أمه ــ وكان ماجور سميث وزوجته قد انتقلا الآن الى انجلترا ــ والتحق بكمبردج فى فبراير سنة ١٨٢٩ وهنا أيضا عاش عيشة الرجل المرهف الحس المنعزل عن الناس . وقد قال فى ذلك أحد مدرسيه : « لواستطاع أحد أن يخرج هذا الفتى عن كسله لكان قادرا على أى عمل اذا أراد ، لـكنه لايريد أبدا »

كانت بلية ثاكرى انه لايستطيع مطلقا أن يركزجهده فى شىء واحد . فهو يوما يحب ان يترجم هوراس ، ويحب فى اليوم التالى ان يرسم صورا هزلية ، وفى اليوم التالى يكتب شعرا هجائيا . وكان قليل الاجادة فى كل ما كتب . فهو لم يركز جهده فى شىء واحـد بحيث يبرع فى هذا الشىء الواحد . ولا مراء فى انه لم يتوفر على الدرس . فهو بعد عامين يقضيهما فى الجامعة تتقاذفه فيهما التيارات . يطلب اليه ان يغادر الجامعة دون الحصول على احدى درجاتها .

وهكذا غادر الجامعة ، وجعـل يخبط فى الحياة ، فجاب أوربا وزار المتاحف والمسارح والمكتبات. ورسم صورا وكتب قصائد . ولاحظ غرور الحياة ورحمتهـا وجمالها . وهو شاب نحيل صموت من علية القوم . فقد ورث مائة الف دولار شديد النهم الى المجد بالغ

الكراهة للعمل ، وكان مزاجه يبلغ فى تناقضه ما بلغ جسمه ، فله جسم عملاق ووجه طفل لطيف وانف مهرج . وقد كسر انفه فى شجار نشب بمدرسة شارتر هوس وظل مدى حياته مشوها ، وقال ذات مرة مازحا « لولا انفى المكسور لحصلت على وظيفة عملاق فى (سرك) فأنا حينما تقدمت للوظيفة اختبرنى صاحب العرض اختبارا دقيقا ، ثم هز راسه وهو يقول : انت شاب طولك مناسب ولكنك بالغ الدمامة » .

ومرت به أيام فارغة وليال عابثة .. ثم تجربة مريرة هى تلك الآلام المتزايدة التى يقاسيها العقل الموهوب . فهو فى لجة تلك التيارات التى تتقاذفه اذ وجد نفسه فى دار ميسر ذات مساء . فرأى ان المغامرة شيء مثير وان يكن مكلفا . وما هى الا بضعة أشهر ، حتى كان قد فقد ماله جميعا . ثم استقر فى حياة العمل الجدى.

– ٢ –

جرب الفن فترة من الزمن ، لكنه أدرك ان كفايته تقصر به عن بلوغ ما اراد ثم قرر احتراف الادب ، وكان قد رأى فى أسفاره كثيرا من (المدن والناس) ورأى فى كل مكان جسوما تضطرب الى غير غاية . « انظر ان كل شيء باطل الأباطيل وقبض الريح » لسوف يتوفر على ملاحظة العرض السارى ولسوف يعلق متواضعا على بعض مشاهده اذا أمكنه ذلك .

والتماسا لهذه الغاية ، شرع يكتب القصائد والمقالات والقصص . وقد رفض معظمها لمبرر حسن . ذلك ان ثاكرى كان يكتب لغرضين متعارضين ، فهو يزدرى بنى

الانسان بعقله ويهواهم بقلبه . ففشـــل الناشرون فى فهمه ، لأنهم لم يستطيعوا ان يحددوا لونه . فقد جمع أعظم المتناقضات الأدبيـــة .. انه مزدر ساخر قاس عطوف ، يرى سخف الحياة ولكنه يراه خلال ضبـاب من الأسى .

وكان ثاكرى نفسه قد واجه اسى عظيما فى مقتبل حياته العملية ، فقد تزوج « ايزابيلا شو » وهى فتاة ايرلندية حسناء ولدت له بنتين . وقدمت له أشهى مذاق للنعيم حظى به انســان . ثم أصيبت بالحمى ، وشفيت منها جسما وماتت بها عقلا ، وقضت سعادة ثاكرى بقضاء عقلها . فعهد بها الى عناية أسرة صديقة ، وألقى بنفسه فى خضم حيـاة الأندية ولم يكد يسيفه « ان نشاطى الاجتماعى لجهد طويل ابذله فى ســبيل النسيان » .

ولم يعد نشاطه الأدبى ان يكون جهدا بذله طول حياته يلتمس الفكاهة . فهو يضحك من بنى جنسه من اثر رثائه لهم . وان تهكم ثاكرى ليخلو من الضغن فان تكن يده خشنة كيد عيسو فان صوته رحيم كصوت يعقوب .

وهذا سر العناء الذى لقيه فى بناء مجد أدبى . فقد عجز الجمهور ابدا عن فهم كاتب يستخدم الســوط ليربت به على الأكتاف عطفا ورثاء ، وكان أبناؤه أنفسهم حين كبروا يعنفونه على دقة فكاهتـــه واستخفائها . ويسألونه « لماذا لا تكتب فكاهة بسيطة ـ كفكاهة ديكنز ـ حتى يفهمك كل الناس ؟ »

وكان ثاكرى يتألم ابلغ الألم لعجزه عن بيع بضاعته الأدبية ، فاذا انسدت بينه وبين المجلات المسالك أنشأ مجلة له دعاها The National Standard

وكان جانب النجاح الوحيد فى هذه المغامرة انها مكنته من السخر بغفلته « لـكنك لو لم تخبر الغفلة قط ، فاستيقن انك لن تكون حكيما » كما قال فى (الأرمل لفل).

لقد فشلت المجلة وظل تاكرى يتعلم الحكمة عن طريق حماقته . وبدأت كتاباته تدريجا تجد لها مكانا فى أركان مجهولة من المجلات . وقد وصفه أحد المحررين بأنه مجرد كاتب مقالات ضئيلة ، ولمع من شعر جميل . فرد تاكرى على ذلك بقوله لأرينك انى خير مما تظن .

ولم يفعل الا بعد زمان طويل . وحينما كان ديكنز ـ الذى يصغره بعام ـ تشرب نخبه لندن كلها ، كان تاكرى شابا ساخرا مغمورا لايقرؤه أحد « كتب قصة نفيسة عنوانها The Great Hoggarty Diamond. فتساءل جون سترلنج : ماذا يفوقها فى قصص فيلدنج وجولدسميث» وغضت مجلات عدة من قدرها . وتقدم بطلب ليعين محررا بمجلة Foreign Quarterly Review « ـ أرجوك أن تفكر فى خادمك المطيع الذى يستطيع حقـا ، فيما يعتقد ، أن يؤدى الواجب على أكمل وجه » فألقى طلبه فى سـلة المهمـلات ، وعرض أن يكتب سلسلة لمجلة Blackwood's Magazine وجاء فى طلبه « انى أنتمى الى ناديين فى هذه القرية وأستطيع أن أجمع كثيرا من الأحاديث » ولكن ملتمسه اصاب أذنا صماء . ياله من عمل مثبط للهمة ، ذلك الجهد العابث لكسب العيش بالقلم . ولكنه لم يتحول عن غايته « ماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك ؟ » . وأخيرا وبعد اثنى عشر عاما من الفشل المتصل ، أصاب قدرا يسيرا من النجاح .

كان أول تواليفه الناجحة نوعا هو The Irish Sketch Book وبلغ عدد النسخ المبيعة من الكتاب ألفا . ولم يكد تاكرى

يصـــدق عينيه حين قرأ الرقم ، فقال فى تجهم خبيث « أخيرا بلغت من الشهرة ما بلغ ديكنز الذى تباع مائة الف نسخة من كل كتاب له » .

وفى سخاء الرجل الذى حقق غايته نصح لصـــديق أديب فى ايرلندا هو القصاص شارلس ليفر بأن يحضر الى انجلترا ليجرب حظه فيها ومضى الى عرض معونة مالية عليه ، وكان هذا العرض ـ كما وصفه ليفرمتفكها ـ أشبه شيء بأن تعلم صـــديقك العوم وانت لاتزال تجاهد لتبقى رأسك خارج الماء . وسرعان ما افاق ثاكرى من سكرة النجاح الأولى ، وعاد الى غمرته وحزنه ، حدثه أحد أصدقائه مشيرا الى (ذى ايريش سكتش بوك) قال « لابد انها متعة فائقة ان تؤلف كتابا يحوى كل هذه الفكاهة المشرقة ، فقص عليه ثاكرى فى جوابه قصة صغيرة . حدث أن اتى مريض ذات يوم الى عيادة طبيب ليفحصه فقال له الطبيب « انك شـــديد الهم والكآبة ولست بحاجة الا لشيء ينعش روحك ، فلماذا لاتذهب الى ملعب التمثيـــل وتشـــهد مجانة المهرج بلسينلو ؟ » فقال المريض « انى أنا بلسينلو » ان ثاكرى يضحك ـ فيما يقول ـ لأنه شديد الميل الى البكاء « الا ما أفكه ماكتبت وانا أكاد أشنق نفسى » كذلك ذكر فى أحد خطاباته .

ـ ٣ ـ

وظل يكتب قصصه وقصائده ومقالاته التى تتسم كلها بالفكاهة . وظل الجمهور يجزيه عليها بحفنة من البنســـات ـ وبتصـــفيق مبعثر مشتت . والحق ان الجمهور لم يكد يعرف اسمه ، فهو فى رغبته الزائدة فى

التنكر قد اتخذ لنفسه عددا من الأسماء المستعارة .

وكان استخفاؤه فى هـــذه الأسماء المستعارة الكثيرة مظهرا جديدا من مظاهر التناقض فى شخصيته . فهو على ظمئه الى ذيوع اسمه ، قد بذل غاية جهده لاخفاء اسمه .

ولكن ثاكرى لايعدم مبررا كافيا لاستخفائه فى أسماء مستعارة . فهو يقول « ان مطمحى الثـــانى هو ذيوع الاسم . اما مطمحى الأول فهو اصابة رزق اولادى » وما كان له ان يكسب عيشه لولا هاطل من المقـــالات يغدقه على المجلات بثمن ضئيل للـكلمة « قد يحدث للأديب ان الربح الذى يصيبه من جهة واحدة لا يقيم اود أسرته ، فعليه ان يكتب فى جهة أخرى . فلو كتب (برون) مثلا مقالات للصحف اليومية وأخرى فى المجلات الأسبوعية والشهرية أيضا ، وذيلها جميعا بامضائه ، لأضعف قوته باطالة خطوطه » .

وتفاديا للالحاح باسمه دائما حجب اسمه دائما . وان قارئا ليتساءل فى احدى هذه المرات النادرة التى وقع فيها ثاكرى مقالا بامضـــائه الصحيح « من ذلك الكاتب الجديد ؟ ان كتابته لأشبه بكتابة الهواة اذا قورنت بما يكتب تيتى مارش (١) » .

ان ثاكرى قد قارب الأربعين ولما يزل مجهولامغموزا . وكانت هذه الغمرة تحز فى نفسه « ياصـــديقى أمسح الأحذية أو نظف السكاكين اوافعل اى شىء غيرالاشتغال بالأدب » كذلك كتب فى احدى مقالاته لان الأدب كما ذكر

---

(١) تيتى مارش واحد من عشرات الاسماء المستعارة التى كان ثاكرى يوقع بها كتاباته • (المترجم)

فى موضع آخر « ليس تجارة ولا مهنة بل هو الحظ الأنـكد » .

ومع ذلك فلم يتزحزح عن حظه الأنكد . لأنه صمم على ان يرى العالم انه « خير مما تظن » واثمر التصميم فى عام ١٨٤٧ تلك الثمرة الأدبية الشائقة « سوق الفرور » وهى قصة لا بطل لها .

ولم يكن ثاكرى مطمئنا اى اطمئنان لقيمة « سوق الفرور » (ليت شعرى أتصلح هـــذه الرواية ؟ وهل يقبلها النـــاشرون ؟ وهل يقرؤها العالم ؟) لم تنجح القصة فى أول الأمر. فقد عرض ثاكرى الأبواب الأولى على مجلة « كلبيرن » فرد المحرر اليه المخطوط وقال « ان هذا الرجل لايستطيع كتابة القصص » ورد القصة محرر مجلة أخرى وعلق عليها يقول « أن الألفاظ خفيفة كأنها ريش من رصـــاص » ويقول محرر آخر بمجلة ادنبرة يدعى «ماكفى ماير» (على المرء أن يكون فى غاية الحذر من قبول عمل الغرباء على القراء . ففى مجلة كمجلة ادنبرة من المهم دائما الاحتفاظ بمستوى عال من الأسماء الـــكبيرة) .

ورفض « سوق الفرور » كثير من المحررين وناشرى الـكتب قبل أن يقبلها محرر (بنش) آخر الأمر .

كان الجمهور بطيئا فى التعرف على مزايا الـكتاب ، لكن النقاد سرعان مارأوا فيه حدثا جديدا فى تاريخ الأدب الانجليزى . وكتبت مسز كارليل الى زوجها : « لقد استحضرت الأعداد الأربعة الأخيرة من ســوق الفرور وقرأتها أثناء الليل . انها تسحق ديكنز وتمحوه محوا» .

وكتب (ابراهام هايورد) فى تعليق له نشر بعد ظهور

اجزاء قليلة من القصة يتنبأ بأن « سوق الغرور » قد كفل لها الخلود ، كما كتب الفناء لتسع وتسعين فى المائة من القصص الحديثة . وهلل للكتاب كثير آخرون من المعقبين وسلكوه فى الروائع ، لكن التقرير الكامل عن هذا الكتاب قد كتبته القصاصة (شارلوت برونتى) لزميلها فى المهنة ، وكانت روايتها المنشورة حديثا (جين اير) قد أثارت الاهتمام والاعجاب ، ومع ذلك ففى وسط نشوة انتصاراتها وجدت الوقت والأريحية للاحتفاء بقصة تنافس قصتها ، تستحق فى نظرها نصرا أعظم من انتصاراتها . فكتبت فى مقدمة الطبعة الثانية (لجين اير) « أن رجلا يعيش فى عصرنا يفضل عندى عظماء المجتمع ، حتى لكأنه ابن (املاه) اذ يسبق الملوك المتوجين فى يهوذا واسرائيل . انه يتكلم الحق كما كان يتكلمه .. عميقا .. يشبه فى قوته وحيويته كلام الأنبياء ، وعلى محياه طابع الجسارة والشجاعة .

لماذا أشير الى هذا الرجل؟ انى أشير اليه أيها القارىء لأنى ارى فيه عقلا بلغ من العمق والامتياز ما لم يدركه معاصروه اليوم ، ذلك لأنى أعده المجدد الأول لهذا العصر، واعتقد ان كتاباته لم تجد بعد من المعقبين من يحلها مكانها الحق ، أو يهتدى الى التعبير الذى يصور نبوغه بحق . انهم يشبهونه بفيلدنج ويتحدثون عن ذكائه وفكاهته وقدرته على الدعابة ، وان تشبيهه بفيلدنج لمن قبيل تشبيه النسر بالعقاب ، ذلك بأن فيلدنج قد يقع على الجيفة . أما ثاكرى فلا يقع عليها أبدا . فعقله ناصع ، وفكاهته جذابة ، ولكن كليهما يتصل بعبقريته الجادة اتصال مستصغر البرق العابث تحت سحابة صيف بشرارة الموت التى تكنها السحابة فى احشائها .

وبعد فانى أشير الى مستر ثاكرى واليه أهدى الطبعة الثانية هذه من (جين اير) ان هو قبل التحية من شخص لا تربطه به علاقة شخصية » .

كان لابد من قصاص نابغ لفهم قصة «كسوق الغرور» فهذه القصة لا تخلو من بطل وكفى. بل انها من الناحية الفنية تخلو كذلك من خطة مرسومة . فهى صورة صادقة من صور وجودنا الانسانى الذى يخلو من البطل والخطة .

ويمكن تلخيص الكتاب كله فى مقطوعة واحدة ، كتبها ثاكرى بعد نشر « سوق الغرور » ببضع سنوات .

ايه يا بطل الأباطيل
ما اعبث شريعة القدر
وما أضعف أساطين الحكمة
وما أصغر عمالقة العظمة

– ٤ –

ظفر ثاكرى الآن بقسط واف من المجد وأصاب عيشا رضيا ، لكنه لما يزل غير سعيد ، فانه كذلك أشبه بأشخاص قصته فى انه دمية فى سوق الغرور.. يمتطى أبدا صهوة الطموح البشرى فى تلك الدوامة المرحة ، هادفا أبدا الى شيء يقصر عن بلوغه . فهو لايحصل على بيت حتى يتوق الى عربة تجرها جياد أربعة . ولايحظى بالعربة ذات الأربعة ، حتى يتوق الى مركز اجتماعى . فاذا أصابه تاق الى مقعد فى البرلمان . ويجسر رغم خلوه من كل كفاية سياسية على ترشيح نفسه لعضوية مجلس العموم .

وكان من حسن حظه ـ ولعله من حسن حظ انجلترا كذلك ـ أن منعته روحه المرحة من أن يبالغ فى جهاده ليحظى بأصوات الناخبين . كان « لورد منك » يرأس احد اجتماعاته الانتخابية فقال « فلينصر الله المرشح الأصلح » . فرد عليه ثاكرى « لاقدر الله » فهو يعرف فى منافسه (ادوارد كادويل) سياسيا يبرعه بكثير، وقد انتخب كادويل واثبت فى السياسة كفاية حقة .

بقى ثاكرى للأدب ، وهو الجانب الوحيد الذى يفضل فيه منافسه ، لكن طموحه ظل يدفع به قدما ، فتعاقد على القاء سلسلة محاضرات ليصيب للأطفال رزقا، وقبل كل دعوة وجهت اليه مهما يكن نوعها ليستمع الى متملقيه « فان هذه المأدبة من المديح المغرق ليزيد فى التذاذى اياها انها جاءت بعد مجاعة طال أمدها » .

وزار أمريكا مرتين فعاد مثقلا بالتشريف وعسر الهضم « اما وقد أصبت مالا لأطفالى الأعزاء ، فقد زال القلق من حياتى واستطيع ان اتنفس حرا فترة من الزمن » .

لكنه لايتنفس فى هدوء وحرية ، فهو مقيم على قلقه وعلى شغفه بأن يبلغ ما لاسبيل الى بلوغه. فان عليه ان يستبدل بعربتـه مركبة أفخر وان يستبدل بتابعه موكبا من الخدم ، وأن يستبدل ببيته الصـغير قصرا ريفيا . يجب ان ينافس نبلاء (سوق الغرور) فى ذلك السباق المجنون ، فهو يكتب الى أمه « ان توم كارليل يعيش معيشة تامة الجلال فى بيت صـغير (بشلسى) استأجره بأربعين جنيها . به خادم اسكتلندية عبوس تفتح الباب الذى يطرقه خيرة رجال المجتمع الانجليزى» فان مجده المنزوى ليس مما يروق ذوقه ، فهو يريد ليكون من رجال المجتمع « انظر الى شهرة ديكنز » ان

عليه هو ايضا ان يكون نجما يتـــألق فى ندوات العالم وحاناته ، انه يتوق الى ان يربته لورد (فلامدودل) بيده فى ود ، وان تبسم له ليدى (فلامدودل) ابتسامتها تلك الأليفة الكريمة الحبيبة ، وان يتهامس به الخدم معجبين اذ يقدمون اليه الطعام فى حفـــلات العشاء التى تقـــام لتكريمه. وكان يحلو له ترديد قصة الخادمين الأرلنديين اللذين استرق اليهما السمع اذ كان يتعشى فى ســانت لويس ، فقال أحدهما « أتدرى من يكون هذا الرجل؟ » «كلا. اخبرنى من يكون؟» « انه ثاكرى الشهير» « وماذا فعل ؟ » « لست أدرى الا انه رجل عظيم » .

وكلماكتب قصة جديدة جعلت عظمته تزداد ، وجعلت السنة الناس تلهج بتمجيده ، وان كانوا لايدرون السبب. ذلك بأن كل الناس كانوا يعجبون به ، وان لم يقرأه منهم أحد ، كما قال ناقد من معاصريه ، حتى ان أروع قصص ثاكرى .. قصة (هنرى اسمند) التى كتب عنها ناشره الأمريكى (جيمس فيلدس) يقول « انى اظاهر ذلك الكتاب واقف الى جانبه ، وانى على استعداد لأن أحمله حيثما أتنقل كأنه بطاقتى الشخصيـــة » حتى هـــذه القصة قد وصفت بأنها أجمل قصص الأدب الانجليزى وأقلها حظا من اقبال الناس على قراءتها . كان الجمهور يلتهم التعليقات ، ويتحدث عن أشـــخاص الرواية ، ويمجد المؤلف ، ويشترى الكتاب . ثم يتركه على نضد المكتبة دون أن يقطع ما بين أوراقه .

فلنقطع نحن ما بين أوراقه ، ولنلق نظرة خاطفة على قصة (هنرى اسمند) . فى أواخر أيام أسرة (ستوارت) كان يقطن منزل ليدى (كسلوود) صبى ضئيل ، كثير التفكر ، اسمه هنرى اسمند .. وهو كما يعتقد كل

الناس ابن طبيعى للكونت توماس كسلوود . فاذا شب الفتى الصغير ، عهد بتربيته الى الأب الجزويتى (هولت) وكان المشير الروحى لأسرة كسلوود .

ووافى الأجل عميد الأسرة وهو يعمل فى خدمة الملك المخلوع جيمس . وصارت عمادة الأسرة الى فرانسيس كسلوود. وارتضىهنرى اسمند تغيرالوضع . بطريقته الهادئة المفكرة . فهؤلاء سادة جدد وتلك أعباء جديدة . وهذه فرصة عظمى جديدة . فان ليدى كسلوود ، تلك الشابة الجميلة التى تبدو أشبه بابنة لفرانسيس منها بزوجته ، كان بها ميل يعطفها الى هنرى ، وكان هنرى يكن لها شعورا أقرب ما يكون الى العبادة . وأصبح يحب ابنتها (بيتريكس) وابنها (فرانك) حب الأخ الوامق.

وفى اول الأمركان السلام يرفرف علىأسرة كسلوود. ثم حل بها اسف وأسى فان اصابة بالجدرى قد شوهت وجه ليدى كسلوود ، فوجد زوجها عزاءه فى أحضان امرأة أخرى لكن فتور الكونت نحو زوجته لايمنعه من ان يغار حين يحاول التودد اليها رجل آخر يقال له لورد موهون ، فتحدى لورد موهون الى المبارزة ، واذا كان هنرى قد بلغ مبلغ الرجال فقد حاول أن يحارب مكان سيده . لكن الكونت عقد العزم على الثأر لنفسه بنفسه . وفى المبارزة قتل واعترف الكونت قبل موته مباشرة ان هنرى اسمند هو الابن الحقيقى لتومس كسلوود . لذا هو المالك الشرعى لأملاك كسلوود ، لكن اخلاص هنرى لليدى كسلوود وولديها كان أعظم من حبه للمجد الشخصى . فأحرق الاعتراف وظلخادما فى المنزل ، بل ظل خادما بغيضا أيضا . فانه لمستلق اثخنته الجراح التى أصابته فى المبارزة اذ تتهمه ليدى

كسلوود بأنه هو الذى جلب الموت على زوجها . ولايقوى هنرى على احتمال الحياة فى تلك الظروف ، فيتطوع فى الجيش ويحارب ويصاب بجراح تحت امرة مارلبرو ، ثم يرقى تدريجا حتى يصل الى رتبة القائمقام ، ويصبح ياورا للجنرال (وب) .

واخيرا يقابله معلمه الأب هولت وهو يحارب فى الاراضى الواطئة ، فيخبره القسيس بحقيقة أصـــله . فان أبا هنرى ، الكونت توماس كسلوود ، قد تزوج من أمه ـ وكانت ابنة نساج ـ ثم هجرها . وقد توفيت فى دير ، وأخذه أبوه الى منزله كما يؤخذ اللقيط ليربى صدقة واحسانا .

ولكن هنرى مابرح يحتفظ بسر أصله لايبوح به لأحد . فواجبه الا يؤذى من يحب . وان كانوا لم يعودوا يبادلونه الحب . وكان يصلى ذات يوم بكنيسة ونشستر ففرح بأن دعاءه قد أجيب . فان ليدى كسلوود لتقف هناك قبالته . ولا تلتقى عيناهما حتى يعاود قلبيهمـــا ذلك الود القديم .

وتعود الآن الى قلب هنرى اسمند عاطفة جديدة . فقـــد أحب بيتريكس حبا قاهرا غلابا . وهى الآن فى السادسة عشرة من عمرها تعمل وصيفة شرف بالبلاط الملكى . وهى غادة غنجة مدللة كأفتن الغيد اللائى صدعن قلوب الرجال ، وظل هنرى عشر سنين لاتريم عنها آماله . ولا جدوى . فليس بها أقل ميل الى هذا الجندى الذى لا مال لديه ولا لقب . بينما كثير من رجال الحاشية اللامعين قد خفضوا الجناح لنار سحرها فاستشـــاط منهم الجناح . فيجد حب هنرى القديم لآل كسلوود مخرجا جديدا وقتئذ . هو الولاء لأخى بيتريكس ويدعى

فرانك . وهو صبى يشابه أخته فى الاغضاء عن العواقب والسحر والجاذبية . حارب معه هنرى وحماه فى معارك كثيرة . وتوفر على تربيته . واهتم اهتماما أبويا لايخلو من توجس بزواجه من نبيلة هولنــدية تكبره كثيرا فى السن .

فى تلك الأثناء كانت بيتريكس ماضية فى مسلاتها التى لاتخلو من املال .. مسلاة تحطيم القلوب . ووصلت الآن الى تحطيم قلبها هى . فهى تجاوز ربيع جمالهــا مسرعة وتظل على ذلك غير متزوجة. كان الرجال يهيمون بها عشقا ثم يخطبونها ثم يتركونها فى طلب صيد أصلح. ولكنها أقامت على رفضها هنرى اسمند رجاء أن تصيب خيرا منه .. وأخيرا وجدت ضـالتها المنشودة .. فى دوق هملتون وهو أرمل له من المكانة والعمر ضعف مالها من المكانة والعمر ، واستسلم هنرى اسمند لمصيره ، وقدم لها هدية زواج عقدا من الماس جميلا كان قد أخذه من ليدى توماس كسلوود ، زوجة أبيه (الثانية).

لــكن دوق هملتون يرفض الهدية . ويصر على الا تقبل عروسه هدية من رجل ليس له لقب ولا جاه . فأجابت أم بيتريكس وقد تولاها الغضب : « انه صاحب لقب فهو الابن القانونى للكونت كسلوود ، وهو الوارث الشرعي لأملاكه وما نحن الا صنيعة احسانه » وشرحت السيدة النبيلة كيف سمعت قصة أصــل هنرى من الكونتيسة العجوز ــ وان هنرى لم ينبس ببنت شفة عنها لأى انسان . وكانت ليلة زفاف بيتريكس الى دوق هاملتون . فقامت مبارزة بين الدوق وباللعنة التى صبت على آل كسلوود من قديم، متمثلة فى لورد موهون ويقتل هملتون فى المبارزة وتترك بيتريكس وحيدة مرة أخرى.

لكنها لاتزال ترفض هنرى . فان رجلا آخر يهفو لها ويميل.. وهو خير ما تهيأ لها من صيد.. هو الأمير ستوارت الشاب الذى يطالب بعرش انجلترا . ولكن الأمير كان يحب أن يتخذها خليلة لا حليلة ، وكان هنرى اسمند وفرانك كسلوود ، أخو بيتريكس من أنصار الأمير ستوارت . فاذا عرفا نوايا الأمير حطما سيفيهما ولعنا الأمير وتركاه لنهايته السيئة .

فاذا هرب الأمير وبيتريكس الى فرنسا كان جو لندن يتجاوب بالصيحة المكهربة « ماتت الملكة آن . يحيا الملك الجديد جورج هانوفر » أما هنرى اسمند والسيدة كسلوود فقد ثاب كل منهما الى صاحبه يلتمس العزاء والسلوى وأثمر العزاء والسلوى حبا وزواجا . فان حب السنين الخوالى قد بعث جديدا « ذلك بأن الحب القديم هو الحب الجديد وهو خير حب » .

— ٥ —

كانت خبرة ثاكرى بالحب القديم أشبه بخبرة هنرى اسمند بالحب القديم ذلك ان ديكنز كان من أقدم صحاب ثاكرى وخيرهم . ولكن نشب بينهما خلاف . وان المتنافسين فى الأدب لتكفى شرارة لأن تلهب بينهما نار الشقاق .. وظل الصديقان سنين طويلة لايتبادلان الحديث . ثم حدث ذات مساء ، وكان ثاكرى قد بلغ الثالثة والخمسين ، ان تقابل الرجلان على درج الأثينيوم فمد ثاكرى يده مندفعا ليسلم على ديكنز . ورد ديكنز عليه التحية .. واختفى بينهما الخصام القديم .

وكأن ثاكرى قد علم ان من واجبه الاسراع بتوديع

صديقه القديم . فما هى غير بضع ليال حتى أقبل يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٦٣ ، فذهب ثاكرى لينام نومته الأخيرة .

لقد نادى المدرس اسمه من الثبت فأجاب ثاكرى فى دعة ، كما أجاب الكولونيل الحبيب نيوكوم فى احدى رواياته « لبيك » .

شارلزديكنز

(١٨٧٠ - ١٨١٢)

- ١ -

كانت دنيا شارلز ديكنز هى دنيا الأطفال أولى الظرف والطيش والتعثر والخبث والدعابة والتفاؤل . وكان هو واحدا من هؤلاء الأطفال .

ولكن طفولته الشخصية كانت خلوا من الدعابة والتفاؤل . كان ضئيلا عليلا قد ساءت تغذيته ، تصيبه بين الحين والحين نوبات من التقلص ، فقال أبوه « لن يعيش هذا الطفل حتى يقاسى المرارة التى يقاسيها الكبار » .

وكان أبوه يقاسى المرارة دائما ، وكان يتقاسمها مع أسرته فى سخاء وجود ، كان كاتبا فى ميناء (برتسى) ، يكسب رزقه فى بطء فائق ، وينفقه فى سرعة فائقة فكان عليه دائما أن يسبح فى بحر من الدين يرتفع مده أبدا .

فاذا بلغ شارلز عامه الثانى نقل أبوه الى لندن . ومعنى هذا ارتفاع يسير فى مرتبه وزيادة كبرى فى وجوه انفاق هذا الراتب . ومما زاد الطين بلة ان جون ديكنز لم يكن خليعا مستهترا وحسب . بل كان كذلك مخصبا مكثرا . فما مضت بضعة اعوام حتى اخرج الى الوجود ثمانية اطفال .

واحال مسئولية اعالتهم الى رب رحيم . أما هو فقد لاذ بالأمن والسلام فى سجن المدينين فى (مارشلسى).

فى مثل هذه البيئة لم يكن أمام شارلز فرصة للتعلم المنظم . فتعلم مبادىء القراءة والكتابة والحساب على ركبتى أمه . وتعلم قليلا من اللاتينية فى مدرسة يملكها القسيس (جيلز) . وكان يزور المسرح من حين لحين فى حراسة ابن خاله (جيمس لاميرت) وحين بلغ الحادية عشرة كان قد انتقل من التعلم الى التكسب .

وكان فى أول أمره يربح بضعة بنسات من غناء هزلى للمصطافين فى (ليم هاوس) قال أحد المبتهجين من عامة الناس فى لندن « ألا ما أشد غرابة هذا الصبى » . غير ان شارلز كان يضيع مواهبه فى جوب الآفاق . فالغناء لايدر مايكفى أولئك الذين عبس لهم وجه العالم . لذا وجد له أبوه ـ بمعونة جيمس لاميرت ـ عملاأكثرمادية . عمل لاصق للأشرطة بمصنع لدهان الأحذية فى (هنجر فورد ستيرز) .

وكان عملا كئيبا مملا يتطلب الوقوف بواجهة المصنع للصق الأشرطة ، من مشرق الشمس الى مغربها ، بينما تقف حشود المارة تعلق على الصبى الصغير ذى الأصابع الرشيقة . لكنه كان يشعر فى آخر الأسبوع انه رجل غنى بذلك المرتب الخيالى (ستة شلنات) أى نحو دولار ونصف. وكان ينفق منها بنسين . وما أبهظه من ثمن.. فى شراء قطعة من الحلاوى البائتة ، ويحمل باقى المبلغ الى أبويه . فاذا كان يوم الأحد خرج للنزهة مع أبيه ، وكان قد أطلق سراحه من سجن المدينين حينذاك فيدعان حياة الجزء الخشن من لندن الى عالم الخيال وكان يروقه فى أرض الخيال بحى الأغنياء قصر فخم

فقال له أبوه « انك أن تثابر وتجد فقد تقطن هـــذا القصر يوما ما » .

فقال شـــارلز فى نفســـه « ياله من حلم مستحيل التحقيق » .

— ٢ —

وكلما علت السن بديكنز زاد جدا ومثابرة وطموحا ، وهو ان أعجزه ان يعيش فى أرض الخيال فعلا ، فلعله مستطيع خلق أرض خيالية ، فقرر الاشتغال بالأدب .

وبدأ حيـــاته الأدبيـــة بأن أسس وحرر جريدة فى (أكاديمية ولنجتن هوس) وهى مدرســـة كان يذهب اليها فى فترات قصيرة تتخلل عمله . وكان هو أيضـــا متعهد البيع لجريدته . فعد نفسه رجلا من انجح رجال الأعمال ، اذ كان يبيع مجلته (بالبلى) وقطع من أقلام الأردواز . لكن أبويه كانا بحاجة الى أن يتعيشا بشىء أكثر من البلى وأقلام الأردواز . فأخرجاه من المدرسة (فى عامه الخامس عشر) والحقاه بمكتب محام .

ولكن ديكنز لايحب أن يشتغل بالمحاماة ، فقد قرر أن يكون أديبا . فعلم نفسه الاختزال « وأخذ يسجل مشهد الكون، مشهد الانسانية التىتلهث طربا وصخبا» وصار يشتغل فى عامه العشرين فى النهار مراسلا برلمانيا، ويكتب بالليل صورا خيالية من حياة لندن . وكان يمهر هذه الصور بتوقيع (بوز) .

وقد نشر بعض هذه الصور بلا أجر فى صحيفة يقال لها المجلة الشهرية .

ويحدثنا عن نفســه حين رأى أولى قصصــه بتوقيع

(بوز) مطبوعة منشورة . انه ولى وجهه شطر قاعة وستمنستر « ولبث فيها نصف الساعة ، فان عينى قد أغشاهما السرور والزهو بحيث لايحتملان ضوء الشارع » .

وكان (بوز) الشاب يحيا فى هذه الأيام حياة ممتعة مليئة بالحوادث زاخرة بالجهد الذى لايكل . فهو فى ساعات العمل أعنف المزاحمين وأشدهم مراسا . وهو فى ساعات اللعب أكثرهم بشاشة وأوفرهم مرحا.ويقول عنه لى هنت (وقد أخذه العجب) « أى وجه ذاك الذى يلقاك به فى حجرة الاستقبال . ان به من الحيوية والروح مثل ما فى خمسين انسانا مجتمعين » .

ومع ذلك فان ما فى وجهه من الحيوية والروح ، أو قل ان ما فى جيبه من المال لم يكن يكفيه كسب الشخص الوحيد الذى يحبه ويؤثره على كافة الناس . وهو ابنة أحد مديرى المصارف ، ماريا بيدنل « ان ديكنز شاب لطيف لكنه اديب ، فهل يستطيع أن يعولنى بقلمه !!» .

وهكذا فقد ديكنز ماريا ، فتزوجت رجلا أغنى منه لم يلبث أن أفلس بعد أعوام قليلة . وثابر ديكنزعلى كتابة القصص فأصبح من أغنى رجال انجلترا .

— ٣ —

وقد نزل أول الغيث على ديكنز فى أوائل الحلقة الثالثة من عمره . ذلك بأن (صوربوز) قد لفتت اليه أنظار الناشرين « شابمان وهول » فتعاقدا معه على كتابة تعليقات شهرية حول صور هزلية يرسمها الفنان الشعبى روبرت سيمور . وقد طلبت هذه التعليقات

كما يطلب ركن تقليدى محرر بالأجر. لكن هذه التعليقات التى جرى بها قلمه ، قد استحالت الى أوراق بكوك الخالدة . ولم تجد الأعداد الأولى من (أوراق بكوك) كثير رواج . لكنها بعثت فيه الشجاعة على ان يتزوج مختارته الثانية من النساء ، كاترين هوجارث .

ثم أصابته صدمة مفاجئة ، هى انتحار روبرت سيمور ، ثم ومضة مفاجئة من ومضات السعد . اذ صار الرسام الجديد هاباوت نيث برون الذى يوقع باسم : (فز) .

وكتب النجاح لأوراق (بكوك) منذ ذلك الحين ، فقد تعاون (بوز) و (فز) تعاونا تاما ، وصار كل منهما يستفز صاحبه الى قمم من اللغو السامى ، فألفت مقطوعات تبكى اذ تضحك وتضحك اذ تبكى .

ولقد اضطر كذلك أن يبكى اذ يضحك حين كتابة أوراق بكوك . ذلك بأنه فقد مارى هوجارث شقيقة زوجه التى كانت تقيم معها منذ الزواج . فظل شهرين لايستطيع مواصلة كتابة سلسلته . وقال الناشرون يفسرون تخلفه « منذ ظهور العدد الأخير من هذا المؤلف منى الكاتب بفقد شابة من أقربائه عزيزة جدا عليه ، تربطه بها صداقة وثيقة ومودة وطيدة ، وكانت صحبتها عزاء له فى كده زمانا طويلا » .

ولم يبرأ برءا تاما من حزنه ، حتى ان كل ما كتبه من مشاهد الموت فيما بعد لايعدو أن يكون بعثا للجرح القديم . فاذا عاد الى أوراق بكوك كان شيخا حزينا حكيما فى الرابعة والعشرين من عمره .

وكان هوى لندن . فقد زينت المدينة بقبعات بوز ،

واربطة بكوك ، وقماش سام ولر . كتب أحد المعاصرين « ليس فى انجلترا مكان الا ولجه (بوز) فدكتور بنيامين برودي يصطحبه فى عربته من مريض الى مريض ، ولورد دنمان يطالع بكوك علىالمنصة بينما المحلفون يتفكرون». ويقول رجل لقسيس وقد أوشك على الموت « احمد الله . انى أستطيع الموت فى سلام ، فقد فرغت لتوى من قراءة الحلقة الأخيرة من بكوك » .

وكان من أثر ذيوع شهرته ان أغرقه النــــاشرون فى بحر من العقود . فتعاقدوا معه على كتابة المقـــــالات والأقاصيص والقصص . وكان يقبل كل شىء «فما أقصر الحياة ، وما أزخر مخيلتى بشخصيات تضرع الى أن أخرجها الى الحياة » وكان الاجهاد يقتله . فانه يكتب فى عام واحد ، وآن واحد ، ثلاث قصص طويلة ويحرر مجلة ، ويخط فى ساعات فراغه مسرحية غنائية قصيرة ورواية فــكاهية .

ويقفز فى المســـاء قفزته الحبيبة الى المجتمع .. لا مجتمع النبلاء ، بل مجتمع المثقفين الذين هم فى الأرض بمثابة الملح فى الطعام . ومن أمتع ما رســـــم ديكنز من الأشخاص شخصه الباسم كأنه زهرة متفتحة فى حجرة الأضياف ، وقد تألق فى صـــــدريته الزرقاء الفاتحة وسرواله الأزرق الفاتح ورباط عنقه القرمزى ، وعينيه اللتين تشـــعان على كل فرد وعلى الجمع نورا ينطق (الا فليبارك الله) .

لقد أحرق شمعة حياته من طرفيها جميعا ، وأبهجه شهود الوهج ، وأسرف على ماله وصحته ، وأكثر من كتبه ، وزاد من شهرته وضاعف من عدد اسرته ، لكنه ضاعفها من امرأة لايحبهـــــا . ولم تكن كاترين دميمة

الجسم ، بل كانت خرقاء العقل غافلة. فهى تحك ذقنها فى كل كرسى تمر به . وتثور لدواع تافهة . وترتاب فى صاحبها . وتنتابها ثورات مفاجئة ليس لها مبرر . ويقتضينا الانصاف ان نذكر ان هذه الصورة هى ماتراه بعينى ديكنز .

ولاريب ان لديها ماتقوله لكنها – وا أسفاه – لم تؤت براعة زوجها فىعرض وجهة نظره . ومع ذلك فلابد فى زوجة رجل نابه عبدته نساء انجلترا أجمعين من ان تكون على حظ من اللباقة غير عادى . ولم يقسم هذا الحظ لكاترين ديكنز .

ومهما يكن من سبب لهذا الشقاق بين الزوجين ، فقد كان على ديكنز ان يمزج بحساء النجاح الدسم مرارة الشقاق الزوجى . ورضى عن طعم هذا الحساء وواصل عمله .

– ٤ –

وقام فى عامه الثلاثين برحلته الأولى الى أمريكا .. وقد بدأت هذه الرحلة بشوق وتلهف من الطرفين ، وانتهت بالجفاء وخيبة الأمل من الطرفين .

فبعد أن جال جولة مظفرة بين المحاضرة وحفلات العشاء وتهليل الناس له فى بوسطن ونيويورك وفيلادلفيا وبلتيمور وواشنطن وغيرها من المدن الأمريكية الكثيرة ، أخذ يتبدى له العالم الجديد ، وأخذ هو يتبدى للعالم الجديد ، مهرجا عاطفيا محتالا . فالألفة بينهما اثمرت الازدراء المتبادل . وكان كلاهما يميل الى التهويل فى أخطاء الآخر. فهو يقول لقد تعود الأمريكيون الاسراف

فى البصق ثم يقول فى وصف ماشهد مرة فى أثناء رحلة بالقطار (لقد طارت قذائف من البصـــاق فى استمرار متصل من النوافذ على طول الطريق حتى بدا كأن حشايا من الزغب قد فتحت من وراء النوافذ ، فعصفت بها الريح) وتشكو امريكا ديكنز هى الأخرى فتقول : (انه يعض اليد التى تصب المال فى جيبه صبا ، فياله من طفيلى كفور) .

واذا كان كلاهما يهول فى عيوب الآخر ، فان لكليهما كثيرا من الحق فى شكاته . فلقد قاسى ديكنز من قرصنة الناشرين الأمريكيين ، لأن قانون الملكية الأدبية الأمريكى قد سمح بنشر كتبه فى هذه البـلاد دون ان يدفع له مقابل . وهو يشير الى هذا الاجحاف فى كثير من محاضراته فيعترض سامعوه على اثارة مشكلة شخصية فى اجتماع عام . لذلك كان فراقه أمريكا داعيا الى ان يتنفس الجميع الصعداء . وقال أحد المعجبين به مازحا (أود أن يكون مستر ديكنز والأمريكيين فرحين بهذه الصفقة) .

عاد ديكنز الى انجلترا يخوض سلســلة طويلة من المعارك من أجل المستضعفين والمعذبين فى الأرض ، وكانت معارك بهيجة ، خاضها بسلاح القصص ، بقلم ســاخر وقلب شاعر . جعل يعنف ويلوم ويمتع ويهدد وينذر ويغرى الحكومة الانجليزية بالاصلاح اثر الاصلاح .

ويقول ثاكرى فى شىء من التعلل الحاقد ان قصص ديكنز قد كتبت لقوم كبار ، لهم عقول الصغار ، فيشكره ديكنز على ملاحظته تلك ويقول (هــــذه هى الحقيقة بالضبط ، فانى اكتب لبنى الانسان ، وهو جنس اميل الى الغباء منه الى الشر) .

واذكان الرجال أطفالا ملتحين فحسب ، فانك تستطيع أن تثير ضحكهم من حماقتهم ، بأن تريهم معرضا هزليا لصورهم فى مواقف خرقاء . وان الجولة فى قصص ديكنز لأشبه بجولة فى معرض للمرايا المحدبة والمقعرة ، أرأيت الى كل هؤلاء الناس ومهازلهم المضحكة : ميكوبر ، بكوك، ولر، سارخنت بوزفوز، شارلس شريبل ، سميك ، سميرز، كويلب ، سكروج ، ديك سويفلر، بوب كراتشيت، توم بنش ؟

وهل هؤلاء الا أنفسنا كما تتراءى فى مرايا المعرض ؟ ان أسماءنا نفسها تنقلب وتنعكس فتـأخذ أشـكالا مضحكة. لكن ياله من وصف صادق ، ويالها من صور خالدة لن تمحى من ذاكرتنا . انظر اليه كيف يستطيع فى كلمات قليلة أن يخلد صورة لرجل « لقد ظل (جون شزلوت) يحشد كل نفيس فى خزانة منيعة ، حتى حشد جثمانه غير النفيس فى خزانة منيعة ، هى التابوت » .

لقد قيل ان انجلترا قد أنجبت اثنين من أكبر فنانى العالم ، هما « رينولدس » راسم الجسـم البشرى ، و « ديكنز » الراسم الهزلى للروح البشرى .

— ٥ —

لكن ديكنز كان أجل من رسام . فهو قصاص بارع ، ينسج خطة القصة فى سهولة أثارت حقد ثاكرى الذى كان يفوقه من حيث الفلسفة ويقصر عنه من حيث الخيال « عبثا أحاول سبق هذا الرجل أو محاذاته » كذلك قال يوما مؤلف سوق الغرور « انى لا أستطيع أن ألمسه أو ألحق بغباره » .

على ان شتى قصص ديكنز يوجد بها شيء من حياته. قال أحد معاصريه : « لكأن هذا الرجل قد شهد كل مكان وعرف كل انسان وشاركه تجاربه » . فكل قصة تشير الى رحلته فى العالم جسما وروحا . ويصدق هذا الوصف على قصص شارلز ديكنز عامة ، وعلى دافيد كوبر فيلد خاصة . قال ديكنز : ان شئت ان تعرف سيرتى فاقرأ دافيد كوبر فيلد .

لكن يجب ان نؤكد ان هذا الكتاب هو رواية خيالية لحياته « اما التفصيلات الحقة لحيـــاتى فأحتفظ بها لنفسى » كذلك قال لمن نقل دافيد كوبر فيلد الى الفرنسية فدافيد كوبر فيلد : صورة هزلية لديكنز كما يرى من خلال عبقريته المازحة . ان الأحرف الأول نفسها لدافيد كوبر فيلد (D. C.) هى مقلوب الأحرف الأولى لشارلز ديكنز (C. D.) وكان دافيد من أبناء الفقر كما كان شارلز ، لكنه يخالف شارلز فى انه اضطر الى العيش مع زوج أم قاس يدعى (ادوارد ميردستون) فاذا بلغ دافيد وشارلز سن الحادية عشرة ، أخذ كل منهما يعمل فى مصنع لدهان الأحذية . وهنا ايضا يختلط الخيال بالحقيقة . فان دافيد ابان اشتغاله بالمصنع يســـاكن مستر (ولكنز مكوبر وزوجته) وسلالتهما من صغار الأطفال . وكان منزل مكوبر هو فى الحقيقة منزل أسرة ديكنز وولكنز مكوبر هو أبو شارلز .. وهو رجل محبوب قليل الحول ، عنيف ، يؤمن ايمانا أعمى برحمة السماء. رجل يتوقع أن يأتى الخير بغتة ، ولـــكنه لايحرك قط اصبعا ليعين على اتيانه . وقد ضيق عليه دائنوه الخناق، حتى القى به فى غيابة سجن المدينين . ويتكرر وقوعه فى قبضة مستغلين لايتورعون . وتمكن أخيرا بمعونة خالة

دافيد من ان يبدأ حياة جديدة فى استراليا ، وكان هذا أغلب الظن هو مايتمنى شارلز ديكنز ان يقع لأبيه .. ان يكون سالما معافى محبوبا ، لكنه بعيد عن بصره ما أمكن . لأن جون ديكنز ، كان لاينى عن تبديد مال ابنه وبعث القلق والارتباك فى عقل هذا الابن .

وباقى القصة أيضا نسيج بارع يضم الحقيقة والخيال. فدافيد ـ كشارلز ـ يشتغل كاتبا لدى أحد المحامين ، ويتعلم الاختزال ويصبح كاتبا ناجحا ، ويتزوج من امرأة ضئيلة لطيفة فاترة العواطف .

وهنا يقف التشابه بينهما مرة أخرى . فدافيد يفقد زوجته ويبنى بامرأة أكثر ملاءمة له . وهذا ماقد يفسره المحدثون فى تحليل النفس بأنه تحقيق رغبة لشارلز ديكنز .

أما باقى القصة . وهو زواج الخادمة (بيجوتى) للحوذى (باركيس) المطواع أبدا ، ونفاق وافتضاح (اورياهيب) وخيانة اميلى الصغيرة وموت حبيبها (هام) حين يحاول انقاذ خائنها (ستيرفورث) الذى خانها لما تحطمت السفينة .. فكل هذه الفصول والشخصيات مبعثها الجانب الخيالى من حياة شارلز ديكنز.. ومع انها خيالية ، فان هذا لايغض من صدقها عند المؤلف . فانه من الصعب أن نرسم الفواصل بين الخيال وعقل الفنان المبدع . وان ديكنز ليقول « انى أحيا مع كل شخصية من شخصيات قصصى » .

وكلما علت به السن ، زاد حبه لصحبة الناس. فلقد

صارت حياته دوارة من تلك الدوارات المثيرة للمرح . فهو أبدا يؤلف كتبا جديدة ويعقد صــداقات جديدة ويتعلم فى الرقص خطوات جديدة .

وتحدثنا ابنته انه تعلم مرة خطوة معقدة صعبة . فاذا كان منتصف ليلة باردة قفز من مخدعه وأخذ يدرب نفسه عليها فى مصاحبة نغمات صفيره ، مما أثار عليه أفراد أسرته الذين أيقظهم من سباتهم .

انه طفــل غير مسئول ، فيه قلق وفيه تقلب وفيه اسراف . ما أسرع ما كان يرد اليه المال وما أسرع ما كان يصدر عنه . كان يدرى ان حياته دوار سكرى . وكان يبتهج لذلك فهو يقول فى تباه واعتزاز. ان ثلاثة ارباعى جنون والربع الباقى هذيان . وان عقله الذى جاب من الآفاق ما لم تستشرفه معظم العقول الأخرى قد دخل الآن فى طريق جديدة مثيرة . وسار فى اثره جسمه العانى غير عابىء بالعواقب . فجعل من نفسه مخرجا مسرحيا ومديرا للانتاج وممثلا ، وجاب الريف ذهوبا وجيئة مع نفر بلغوا من الجنون ما بلغ ، يحيى التمثيليات القديمة ، ويكتب أخرى جديدة . ويغازل فى مرح ، مخلفـــا وراءه فى كل مكان آثارا من الحب والضحك .

وكان احب شىء اليه اخراج تمثيليات للأطفال. ذلك بأنه خير من يفهمهم وهم خير من يفهمونه .

ومهما تبلغ شواغله من الكثرة والالحاح ، فانها لاتعوقه عن تسليتهم . فكان بيته مليئا بالأطفال دائما . فقد بلغ عدد أولاده الآن عشرة ، دعك من رفاقهم الصغار الكثيرين الذين يأتون لزيارتهم « وكثيرا ما كان العم بوز يقطع

الجملة من وسطها لينصرف الى مداعبة الصفار دعابة عنيفة » كما تقول ابنته .

ان ديكنز فى موقفه من الأطفال ليتبدى فى أشد حالاته مرحا وأشدها رقة . كذلك حدثنا أحد أصحابه انه كان يجوس واياه خلال الأحياء الفقيرة ذات ليلة باردة من ليالى الشتاء ، وكان الفجر يقترب والزمهرير القارس يكاد يقتحم جسمى وينفذ منى الى صميم عظامى «وكنا نمر بنزل فقير، فما هى الا ان رأيته يختطف طفلا صغيرا من بين ذراعى أمه السكرى المسكينة ويحمله الى داخل النزل بما كان عليه من قذارة ، ليمنحه الدفء والعناية » .

وهذا صديق آخر من أصدقائه يصوره فى صورة تشبه هذه جمالا « كان يسير مع ديكنز خلال سوق هرجرفورد ، وكان يسير أمامهما أحد عمال الفحم وقد حمل طفلا يطل وجهه المتورد القذر من وراء كتف أبيه. فغمز ديكنز للطفل وغمز الطفل لديكنز يرد عليه تحيته. وبعد اذ استقر التفاهم بينهما على هذا النحو اشترى ديكنز كيسا من الكرز من بائع الفاكهة واطعمها الطفل جميعا واحدة واحدة دون أن يلاحظ الأب من الملهاة الصغيرة شيئا » .

فالحياة كلها ــ كما يعلم ديكنز والأطفال ــ يمكن أن تحال الى ملهاة لو انك نظرت اليها النظرة الصادقة . فان القدر أيضا كان يطعم ديكنز الكرز ، ويمنحه السرور العظيم ، والمذاق الممتع .

ثم أصابه التلبك فى آخر الأمر . فقد اشترى ديكنز قصر (جادزهيل) وهو القصر الذى اخبره أبوه مرة انه

قد يمتلكه يوما ما اذا هو جد وثابر. وأمتلاك هذا المنزل والسهر عليه يتطلبان مزيدا من المثابرة والجد ، ومزيدا من الأصدقاء والتسلية ، ومزيدا من التنغيص على زوجته والانفصال الحاسم منها آخر الأمر .

وتبع ذلك انهيار فى صحته . لكن عمله متواصل لاينقطع . فنفقاته تتزايد ، والجمهور الظامىء يتصايح بطلب المزيد من قصصه ورؤية شخصه . وتعاقد على سلسلة من الجلسات يقرأ فيها رواياته على الجمهور.. فى انجلترا وامريكا . وكان يصيب فى كل مكان غدقا من الذهب وضجيج الاستحسان .

كتب من اكستر الى صديق له فى لندن « لم أشهد شيئا قط كالحب الشخصى الذى يفد قوته على» وهذه امراة توقفه فى شارع بنيويورك وهى تقول « مستر ديكنز هلا اذنت لى فى لمس اليد التى ملأت بينى بعدد كبير جدا من الأصدقاء » ويبدو ان كل من قرأ قصصى متلهف على ان يسمعنى اقرأها من جديد .

ولا عجب . فهذا الرجل ، كما قالت سيدة من بوسطن ، هو ساحر لاريب فى ذاك ، قد أجتمع فيه رهط كامل من البشر . فهو يكاد ان يبدل بجسمه جسما آخر كلما انتقل من شخص فى القصة الى شخص آخر. وان له من الأصوات مثلما حوت كتبه من الأشخاص. وأحيانا كانت عاصفة جائحة من الاستحسان تعصف بالجمع كله، فما كان شيء يوقف الضحك وانبجاس الدموع ، واصطفاق الأكف ، والقرع بالأقدام ، والهتافات الداوية المحمومة « أعدها ثانية أعدها » ثم « أعدها أيضا » .

وكان ديكنز يرد المعجبين الى الهدوء باعاداته ، ويجمع

ماكسب ، وينزف قوته نزفا ، ويعود من رحلة فيامريكا استغرقت خمسة أشهر وقد حمل جيبه مائة ألف دولار — وحمل وجهه طابع الموت .

واذا كان قلبه مابرح قلب طفل ، فان جسمه غدا جسم شيخ طاعن فى السن . كتب احد أصدقائه فى مفكرته (ان أقل استثارة لشعوره تدفع بالدم الى يديه حتى لتضربان أحيانا الى السواد . وتلبك هضمه بحيث لم يستطع أكل الطعام اليابس ، فكانت قائمة طعامه اليومى تشتمل على قدر يسير من القديد المبلل فى القشدة ، وقدح من حساء البقر ، وكوب من نبيذشرى، ومشروب (اجنوج) مضافا اليه قليل من الروم ليضفى عليه طعما لايعافه . وكان أبدا مصابا بالأرق، ويستشعر فى قدمه اليسرى خدرا خاصا) «كان جزءا منى قد مات فعلا » .

لكنه لاينى عن مطالعاته خلال الربيع من عام ١٨٦٩. ثم يقضى راحة قصيرة فى منتصف الصيف ، ويستأنف المطالعة خلال الخريف والشتاء من ١٨٦٩ والربيع من عام ١٨٧٠ .

ثم تقصر قوته عن بذل الجهد . فهو يقول فى آخر مرة ظهر فيها على الناس « انى لأتوارى عن هذه الأضواء الزاهية الى الأبد .. فوداع محزون ، شاعر بالفضل قادر للجميل يحمل لكم الحب والاكبار » .

وما هى الا بضعة أسابيع ثم ظهر لأول مرة أمام جمهوره الجديد ، جمهور خالد من الأطفال المرحين (وهل تحوى مملكة السماء غير هؤلاء ؟) .

فيودور ميخائيلوفتش دستويفسكي

(١٨٢١ – ١٨٨١)

– ١ –

كان آل دوستويفسكي في أول أمرهم اسرة كاثوليكية من لتوانيا – يجري في عروقها دم أهل الشمال – واذ كانت قد تحدرت من أصلاب قسيس أرثوذكسي يوناني ، فقد تميزت بالكبرياء والتزمت والورع ، والفقر المدقع . لقد كانوا مشوقين الى كلمة الله والى الحنطة ، وقد رحلوا الى اوكرانيا ، وغيروا ديانتهم الى ديانة أكثر انسجاما مع دمهم الأسكندناوى ، والتمسوا الطعام والجواب الأبدى على سؤال الروح الأبدى . لقد كانوا رهطا أولى عقول ، قد يذهبون الى اى مكان عفوالخاطر – الى الجنة أو الى اللعنة ، ولكنهم لايذهبون أبدا في غمرة الهمل .

ولد فيودور عام ١٨٢١ من هذه السلالة العجيبة من الكاثوليكية الأسكندناوية التى يكسوها الجلال . وكان أبوه من هيئة الأطباء بمستشفى للفقراء . وقد أوحى هذا الموقف الى الصبى بأن وجود أولى العقول ليس مرده الى عقولهم بل الى انهم أطباء للفقراء ..

وان موسكو في الشتاء لتتخللها ريح لا تكتفى بأحداث صفير موسيقى في الأذن بل انها لتصمى القلب كأنها السيف .

وكان مستشفى دوستويفسكى زاخرا بكل الوان قسوة الطبيعة بالانسان وفى الصيف حيث تدفأ الريح ، كنت ترى أطفالا ذوى رجل واحدة ، ورجالا طاعنين فى السن يموتون موتا بطيئا من أثر القذارة والمرض . يطلعون فى حديقة المستشفى المجاور لمنزل فيودور ، كأنهم علامات الاستفهام قد جن جنونها على صفحة الطبيعة الباسمة.

كانت حديقة المرضى هذه أولى ذكريات فيودور ، ولقد فطن فى سن باكرة للتناقض العجيب فى أمر الحياة ، شقاء الانسان وسط بهاء الطبيعة . وهذا الصدام بين متناقضات الحياة هز منه أعماق الفؤاد .

وكان جدار مرتفع يفصل بيت فيودور عن الحديقة، ولكنه لايستطيع المشى حتى يختفى الحاجز بينه وبين هذا الجمال ، وهذه الشقوة . اذ كان بالجدار باب ففتحه .

ثم كان مساء . فاذا أبوه ثائر مستشاط اللب، يقفل الباب فى وجهه بعنف ، ويخبره ألا يعود الى فتحه أبداً. ولكن فيودور كان يعلم ان الباب فى انتظار ان يفتح بيد أحد الناس ، ممن يتحدون الضرب بل ويرحبون به وقرر انه ما بقى أبوه على احتفاظه بالمفتاح كأنه السجان، فسيقوم هو بضرب نفسه ثلاث مرات يوميا التماسا للسرور الذى يحظى به فى المعاناة ، مع هؤلاء العانين على الجانب الآخر من الجدار ، العانين وسط مجالى الجمال.

ان على الانسان أن يألم لكى يتنزه فى حديقة ، وكان الدكتور دوستويفسكى شديد الحزم فى معاملة فيودور واخيه ميخائيل . فحيثما كان باب فى الجدار سارع باغلاقه ، واذا لم يكن جدار سارع ببناء جدار ، ولم يسمح للصبيين بمصاحبة اى انسان من خارج الأسرة.

ونجم عن هذا الحزم ان صار فيودور صبيا متوحدا .

فلما التحق بمدرسة الهندسة فى بترسبرج فى السادسة عشرة من عمره ظن المدرسون والطلاب انه متغطرس . فلم يكن له من رفيق غير أحلامه (انى أحلم بالعظمة والجمال . انى أحيا فى دنيا الأحلام وسأكتب مسرحية عاطفية) .

انه يعيش فى عالم المعانى المجردة . بعد اذ حال أبوه بينه وبين العيش فى الواقع الملموس .. فما عساه يعلم عن المسرحية العاطفية ؟ لقد كان أبوه ينهى ابنه المتورع عن ذكر النساء الا فى الشعر المسرحى وفى سن السادسة عشرة كان الطلبة الروس الشياطين بمدرسة الهندسة يعرفون كل شىء عن النساء . فجعلوا يعيرون ذلك الشاعر الراهب الصغير ذا البشرة البيضاء الذى يعيش بينهم .

ولكنه لم يلبث ان تسللت اليه الصداقة عن طريق ممنوع . فلقد قابل بعض الأدباء ممن هم على شاكلته وكانوا مثله حالمين ، يقرءون بوشكين ويكتبون الشعر ، وكانوا احيانا يلتمسون صحبة النساء . ولكن هذه الصلة لم يشعر بها أبوه . « أقم حولك سياجا واحذر ان يعديك زملاؤك » .

وكان فيودور قد كتب الى ابيه يرجوه ان يبعث اليه بقليل من المال ، يبتاع به بزة جديدة ، ليتعشى فى راحة مع أصحابه .. نعم .. وليأتم قليلا . فلم يتلق فيودور على كتابه غير رد شديد غاضب . وكان أبوه قد انتقل من المستشفى الى ضيعة ريفية وشكا من ان نفقات هذه الضيعة تستنفد كل موارده . وقال ان ولديه سيكونان متسولين بعد موته ، ما لم يكفا عن طلب المال .

ولاحظ فيودور انالخط مضطرب، فظن ذلك راجعا الى اسراف أبيه فى شرب الفودكا ، وكان مصابا بادمانها. وتلقى ذات يوم خطابا من منزل أبيه ، لا بهـذا الخط المضطرب الباعث على الشفقة ، بل بخط شخص آخر، وقد جاء بالخطاب ان أباه قد سافر للاشراف على بعض أملاكه فلم يعد .. وقد وجد مخنوقا تحت وسائدعربته .. أما الحوذى فقد اختفى مع الخيل . وسرى همس بأن ماحدث انما كان انتقاما من جانب رقيقالأرضالذين لم يعودوا يصبرونعلىقسوة مالكالأرض دوستويفسكى. وجرت الشائعات بأن كثيرا من القرويين قد اشتركوا فى المؤامرة .

لم يجر فيودور اسم أبيه على لسانه مرة أخرى . ولكن مصرع دوسـتويفسكى الأكبر والسبب المرجح لاغتياله قد أحدث اضطرابا عنيفا فى روحه ، وكأن لعنة قابيل قد صبت عليه ، فأرسل بصره فى الظلام .

— ٢ —

وكانالليل زاخرا بالرؤى التى ائتمرت به ، وازعجته، وأشارت الى مغزى عظيم . فسطر هـذه الرؤى على الورق . قصص نفسية عن المغامرات ، وهى مسرحيات لم تمثل خارج شخوصه بل فى داخلها . وهذه صورة مجردة قد اتخذت صورة وحش عقد به ناظره . انه الشعب الروسى . لسوف يفهمه ويعمل له ولايألو فى خدمته جهدا . لسوف يحمل النار والماء لعبقريته .. ويتعهده حتى يبرز ملامحه من سمت الراس الىاخمص القدم . انه لم ير وهو بين المثقفين فى بيترسبرج غير الراس . والآن فلير القدم .

فقد لاحظ ان هذه الملايين التعسة التى منها تتكون القدم انما تعبر عن نفسها فى حرية مطلقة فى الحانه حول كوب من الفودكا . فذهب على حيائه ودقة ذوقه الى حانات بيترسبرج ليستمع الى أبناء ضرة أمنا الأرض . ولم يكن بالرجل الذى يتشجع الغرباء على التحدث اليه. فقد كان وجهه مكتئبا ، وكانت عيناه زائغتين . لذلك كان يدعو الناس ، لا الى حديث حول المائدة ، بل الى ملاعبته (البليارد) حيث الوجه متجه الى أسفل والآذان مرهفة الى أعلى .

فما أضعفه من لاعب وما أقواه من منصت. لقد خسر المال وكسب الحكمة وذات يوم وقع مخطوط له فى يد ناقد روسى حصيف ، فأرسل الى دوستويفسكى وقال له (أيها الشاب : أتدرى ماذا كتبت لتوك ؟ كلا انك لاتدرى فانك لايسعك الفهم بعد) .

لقد جعل دوستويفسكى عنوان مخطوطه (الشعب الفقير) انها قصة الناس الذين لم يخلقوا غير خلق نصفى ـ قطع بائسة من الصلصال شوهتها أصابع الملائكة الخرقاء ، جسوم كسيحة ، وأرواح كسيحة ، مفارقات انسانية ، معتوهون أولو أعين جميلة ، عمالقة أولو أطراف ملتوية .

ونظر دوستويفسكى الى حياة أولئك التعساء فلم يجد فيها عقلا ولا تناغما . ثم رجع الى المثقفين من جديد. فلعلهم على الأقل يعينونه على تبين نظام للخلق ، ومعنى للحياة ، لعل هؤلاء المثقفين يغيرون وجه المجتمع ، ويخلعون القيصر فى روسيا ويقيمون جمهورية من الأحرار . وانما الانسان هو من ينقذ مصيره . وان على عقل الانسان ان يعمل لكى يثير قلب الانسان من الشقوة

الى النشوة .

ويشترك دوستويفسكى فى مشاورات الندوات التى كان يجريها هؤلاء المثقفون الأحرار الذين سوف يغيرون جوهر العالم . فيضم صوته الى صوتهم ضد ظلم رجال الحكومة ويقبض عليه فى أحد الاجتماعات . وبعدمحاكمة صورية سيق الى حصن (بيتربول) فى انتظار نهايته مع غيره من المجرمين السياسيين ، لقد أسروا بدنه ، ولكن أنى لهم بأسر روحه ؟ أنى لهم أن يحبسوا اللانهاية بين جدران الزنزانة الأربعة ؟

وهم الآن يضعونه فى عربة ، ويسوقونه الى أرض سيمينوف للتدريب قرابة عيد الميلاد . الهواء حاد وهذه عربات أخرى تصل الى المكان محملة بسجناء سياسيين آخرين . وهذه فصائل من الجند راقفة فى انتباه على أهبة تنفيذ حكم المحكمة العسكرية .. بالموت .

وهذا قسيس يحمل صليبا فى يديه ، يقود السجناء الى منصة جللت بالسواد . وهؤلاء السجناء يؤتى بهم شرذمة شرذمة أمام فرق اطلاق النار . وهذا فيودور فى الشرذمة الثالثة يقدر ان قد بقى له من العمر خمس دقائق . ياعجبا ليقظة عقله فى مثل تلك اللحظة .

وما يكاد الجند يرفعون بنادقهم حتى يهرع فارس الى المنصة ، يحمـــل رســـالة من القيصر بالعفو عن المسجونين . لقد خفف حكم الاعدام الى النفى بسيبريا . وكأن هذه دعابة عابسة للقسيس الصغير . وان أحد المسجونين لايسمع بالعفو حتى يشرد لبه ويصاب بمس . وآخر يصيح فى مرارة (كان القتل أهون) ذلك انهم كانوا يعلمون ان الموت فى الحياة أبلغ ايلاما من الموت بمعناه المعروف .

وسيق دوستويفسكى ليلة عيـــد الميلاد من حصن (بيتربول) الى القطار الذاهب الى سيبريا . وفى المحطة الأولى دفعت امرأة بنسخة من الكتاب المقدس الى يديه وكان هذا هو الهداية الوحيدة لمسافرصوب هذه الأرض الخراب . ووجد بين أوراق الكتاب المقدس ورقة من ذات الروبلات الخمسة والعشرين - تكفى لشراء تبغ وثوب كتانى وصابون وخبز أبيض. ولكنها لاتكفيه ان يبتاع السلام العقلى اذ لم يكن يسهل على شاب حضرى أحب نعومة العيش ، ان يقضى وقته فى سترة السجن ، وذراعاه وساقاه مصفدة بالأغلال . وان يديه اللتين لم يسبق لهما العمل بأى شىء اثقل من القلم ، قد قضى عليهما الآن بالأشغال الشاقة .

ان هذا الشاب المسرف فى استحيائه ، قد القى به الآن بين ابشع اللصوص والقتلة فى روسيا . وصـــار رفاقه دائما هم المفسدون الذين لا صـــلاح لهم وقد اقتحموا عليه أفـــكاره . وكادوا يقترفون جرما أبشع بكثير من كل ما اقترفوه من قبل . ذلك هو جرم ذبح العقل بلا سكين .

ولكن عقل دوستويفسكى رفض ان يذبح فان مشكلة مصير الانسانية قد عادت الى استثارته حين بلغت حيرته المدى . ووجد ان معسكر الاعتقال فى سيبريا ان هو الا قاعة أخرى من قاعات البليارد فى بيترسبرج .

ثم لاح له اثناء تأمله نور جديد . فقد أدرك ان اصلاح من لاصلاح لهم لايأتى عن طريق الانسان بل عن طريق قوة خارج الانسان . فعاد نهما الى الكتاب المقدس الذى

كان قد وجد بين صحائفه الورقة ذات الروبلات الخمسة والعشرين ، التى وفت بشراء الخبز الأبيض ، وقد كشف فى رسالته عن نوع من الخبز خير وأبقى .. خبز الأرواح الأبيض .. انه الله منقذ الانسان مذنبا كان أم قديسا . لكن اذا كان الله ينقذ المذنب فأى خطر فى اقتراف الذنب ؟ الواقع ان الخطيئة اغراء ايجابى ، اقتراض من رحمة الله ، اختبار لكرمه اللانهائى ، كما ان طلب القرض من صديق فيه امتحان لكرم الصديق. وهؤلاء المثقفون فى بيترسبرج ، الباحثون عن عالم يفوق عالمنا خلقيا ، ألم يعلموا ان صلب المسيح لا يكون له معنى ما لم يصلب القاتل بجواره : « فالله يخلق الخاطىء والخاطىء يخلق الله ، وان عالما من الكمال الذكى كالذى يحلم به المثقفون فى بيترسبرج ، يوشك ان يقضى بالعدم على الغرض الخلاق الله .. »

وكلما زاد دوستويفسكى ايغالا فى التفكر فى مشكلة الشر، زاد ادراكه ان جريمة الانسان ليس معناها شر الانسان ، وان عقاب المحاكم ليس معناه ارادة الله . « ان من يحيق بهم عقاب البشر ينجيهم الله » .

وهذا دوستويفسكى الذى اشترك فى نشاط ثورى وهو يأمل مخلصا انقاذ الناس تصدر محكمة مخلصة عليه حكما بالعقاب جنبا الى جنب مع القتلة الذين ازهقوا ارواح الناس . وهنا أومض فى خاطره شعور بأن عليه البحث وراء ظواهر الأشياء ، لكى يهتدى الى المنطق الصحيح للأشياء .

— ٤ —

وبعد ان قضى اربعة أعوام فى سيبريا ، اطلق سراحه

من الأشغال الشاقة ، ولكن القانون الروسي كان ينص على ان العقاب لم ينته بعد . فطلب اليه ان يخدم بوصفه جنديا فى سيبريا ، وان يشق طريقه صعدا الى رتبة الضابط ، قبل أن ترد اليه حريته . فانضم الى فصيلة من الجند فى قرية سمبيلا تنسك الصغيرة . وأحب ماريا دمتريفنا ، زوجة ضابط الفصيلة ، وكانت شقراء شيئا ، متوسطة الطول نحيلة جدا سريعة التأثر متعالية ، وكان زوجها فى نزع الموت . ولكن فيودور كانت قد اجتاحته فكرة (لن أتزوج قط . يجب ان أحيا عزبا) ذلك بأن مرضا خطيرا كان يعاوده فى السجن فى فترات منتظمة ، هو (الصرع) . وقد أخبره الأطباء ان هذا المرض يستفحل مع تقدم العمر . وهو الآن قد اجتاز معظم الحلقة الرابعة . وهذه أول مرة يقع فى غرام عنيف ، انه حب قد تأجل عن موعده كثيرا ، فأعاد الرجل فجأة الى جموح الصبية المراهقين .

وسرعان ما مات زوج ماريا ، فعمد فيودور، الرجل الذى برىء من مرضه كما كان يدعو نفسه الى اهمال نصيحة طبيبه ، وبنى بالأرملة ، وسرت شائعات السوء بأنها قضت الليلة التى تسبق ليلة الزفاف فى احضان عاشق يصغر فيودور فى السن .

وحين سمح لفيودور اخيرا بالعودة الى روسيا ، لغط الناس بأن عاشق زوجته تبعهما فى مركبة تسير فى اثر مركبتهما الى الوطن . ولكن الشتاء الرطب سرعان ما اصابها بالحمى القرمزية ، وصار من الواضح انها ايضا موشكة على اللحاق بزوجها فى عالم الموتى. وحالت حالها مع الوقت بحيث صار ينكرها من رآها . فلا حاجة الآن الى الخوف من خيانتها .

وكان فيودور لم يزل يجاهـــد فى حل مشكلة الشر، فرجعت به الذكرى الى بعيد الماضى ، الى أيام طفولته، والىحديقة المرضى، حيث المرضىعلى جانب من الجدار، والأصـــــحاء على الجانب الآخر.. ان على المرضى أن يموتوا ، وعلى الأحياء أن يحيوا . فان عواطفه التىطال بها الـكبت متعطشة الى الانطلاق . ووجد ريا لظمئه فى ابوليناريا بانكراتيفنا . وكانت طالبة شابة تسير فى المظاهرات الاشتراكية تحمل علما أحمروتنشد المارسييز. وكانت قد استمعت اليه وهو يحاضر . فـكتبت اليه انها تحبه .

وكانت باردة وكانت شبقة ، وكانت مزعجة ، حتى فى الحب . حتى ليكاد مركيز دى ســاد ان يكون من تلاميذها فى ذلك . انها قمينة بأن ترتكب الجرائم دون اكتراث أو احتفال . وهى فى برود جليد الشتاء ، تنظر الى كل الناس دون ان يمس نفسها منهم شىء ، كأنها رئيسة دير فى القرون الوسطى . ومع ذلك فلم تشبهها امرأة أخرى فى الشهوة والشبق .

أما محبها فكان ينطوى على رجلين ، أحدهما يعمل جاهدا للكشف عن مشكلة الجريمة والعقاب .. يرسم خطوطها وشخوصها ، ويكتب المذكرات ويصف النوافذ القوطية.. انه يحاول ان يخضع للغة الكلام قصة الطالب (راسكلنيكوف) الم يهب نفسه للبحث عن دخيلة العالم، وان يحيا ويموت فى دير فنه ؟

هذه صورة الرجل فى وعيه .

اما الرجل الآخر ، فطائر على جنح حلمه المحموم ، جائل مع (ابوليناريا) اقطار اوربا جميعا . وانها لتصده

وتعذبه وتحمله على الاستمتاع بها وكراهتها على التعاقب. وانه ليركع أمامها وقد غشت عينيه الدموع ضارعا اليها الليلة بعد الليلة الا تطرده من غرفتها . ثم تناهت اليه الأنباء بأن زوجته قد شارفت الموت . فأسرع اليها ، وسهر على العناية بها سهرا متصلا ، وشهدها حين أسلمت الروح .

— ٥ —

وذات صباح أقبلت شابة على دستويفسكى تلبية لحاجته الى سكرتيرة يملى عليها كتابه الأخير، فنظرت فى اجلال الى وجه الرجل الذى يكتب (الجريمة والعقاب) الى جانب فراش زوجته المحتضرة . فلما تم الكتاب احس دستويفسكى بقلق عجيب ، ولكن سكرتيرته (آنا جريجوريفنا) قالت له (فيودور ميخائيلوفتش ان الجبلين لايمكن جمع شملهما ، ولكن الانسانين يمكن جمع شملهما) وتزوجته .

والجريمة والعقاب : هى قصة (راسكلنيكوف) التى يقراها العالم أجمع. قصة الشاب اللامع الذى يستيقظ فى حلمه ، فيقدم نظريات ويكشف أغوار الخير والشر بعقل نافذ لايعوقه عائق .

واخيرا يتمخض عن ذوبان ارادته فى صورته العقلية المجردة للانسان الأسمى ويقع جسمه فى أسر عقله.. فكل ماكتب عنه من الأفكار ، وكل ماخطه من مقالات ونظريات قد استحال ارادة آلية تجرفه أمامها . فتدب الحياة فى المعنى المجرد حتى ليبتلع ما كان حيا ملموسا، ويحدث تبادل بين الشخصيتين ، وما دامت آراؤه ونظرياته قد اشتملت على وجود الجريمة ، أبشع جريمة

يسع العقل البشرى تصورها ، فانه مضـطر الى از يقترف جريمة .. يجرفه الى ذلك قوةعقل عقد العزم على اختبار أفـكاره ..

وهناك عجوز من عميلات الرهن ، كان قد رهن لديها بعض ما يملك فقرر قتلها وساءل نفسه ولم ذلك؟واجاب (انه من أجل مالها الذى لاغناء فيه للبخيلة ، ولكنه أداء لما تحتاجه حياة الطالب مثلى من نفقة) .

ووجدت آنا فى شهر العسل دستوبفسكى مستلقيا فى احدى نوباته ، وقد تدلى رأسـه من أحـد جوانب مخدعه ، ولو مضت ثانية بعد ذلك لوقع. وسبق تقلصاته شعور صرعى ، وتحول وجهه كله الى نعمة نشوى ، فمسحت العرق عن جبينه والزبد عن شفتيه (واستفاق تدريجا فقبل يدى وعانقنى) .

ومضى دستويفسكى فى كتابة قصـته .. وفى اليوم المضروب للجريمة ينام راسكلنيكوف معظم الوقت حتى يفوت الموعد المحدد. ثم يصحو ويشخص الى دارالعجوز فيصطنع عذرا لتعطيلها ثم يمسك بفأس . وكان حتى اللحظة الأخيرة يشعر شـعورا قويا ان الأمر كله غير صحيح وانه لن تقترف جريمة.. حلم عجيب .. ايهما العالم اليقظ ، وأيهما العالم النائم ؟ وعلى نحو آلى يشج رأسها بحد الفأس . وكأن الدم الذى ينـزف شراب فى سوق .

فتصعد أخت القتـيل الدرج ، وكان يقدر غيابها فقتلهـا هى الأخرى ، وأخـذ بعض مجوهرات المرأة العجوز، وحافظة نقودها ، لأن صوتا فى باطنه يغمغم له غمغمة متصلة (انك قتلتها من أجل هذا المـال . من اجل هذا المال. .لأنك فقير محتاج وهى غنية عجوز لاجدوى

لها .. وهذا المال سيدفع بك قدما فى حيـــاتك وفى دراساتك) .

ثم يلقى بحافظة النقود جانبا دون فتحها ، ذلك بأن فكرة جديدة تسرى الآن فى جهاز عقله (أيها الانســان الضعيف لا تنتحل الأعذار لتوجد مبررا ماديا . انك قتلت هذه المرأة لمجرد ان القتل نفسه قد استهواك . وليس من دافع آخر . انك قتلت لأنك أردت اقتراف جريمة) .

وكان دستويفسكي يذهب الى المقصف دائما ، يراهن بالمال على الأحمر والأسود . فان الجموح واللونوالخطر كانت تجرفه ولا عاصم ، كأنها الحياة نفسها . « وعاد ذات يوم الى منزله فى يأس وقال انه قد خسركلشيء ، وشرع يرجونى السماح له برهن بعض الأشياء ، فخلعت له قرطى وحلية صدرى .. فركع امامي وقال : انعليه ان يلعب دون انقطاع .. وعنــدئذ أدركت انه ليس بالمقامر العادى . فهو لايقامر ليكسب ، بل لأن بهحاجة الى ان يخسر » .

ولكن جريمة راسكلنيكوف لا تختم القصة انما هى البــداية . ان الانسان بحاجة الى اقتراف الجريمة ، لا من أجل الجريمة ، بل من أجل ما يليها من عقاب .

هذه هى القصة . فهل تريد المضى قــدما فىالتيه المعقد وراء الخير والشر؟ ان القتل قد أعتبر جنــاية غامضة ، واعتبر القاتل مجهولا ، ولا مراء أن أحدا فى بيترسبرج لايتهم الطــالب راسكلنيكوف بكل نظرياته الغريبة ..

وفى غير وعى وعلى نحوآلى ، فى هذه الحدود المجهولة

بين عالم الواقع وعالم غير الواقع . يعود راسكلنيكوف الى زيارة مكان الجريمة ، ويذهب الى مقر الشرطة للسمر ، فتند عنه تلميحات مريبة ويلفت الى نفسه الأنظار ، ويبذل جهد المستميت فى اجتذاب الأنظار الى جريمته . حقا لقد اقترف جريمته من أجل ما تشتمل عليه من ذنب (ألم أولد محملا بخطيئة كل من مات وكل من سيولد ؟ ما أغبى الناس وما أقل بصر القوانين التى سنها الانسان ! فهى لاتعترف قط بالجرائم غيرالملموسة التى تحوم فى أثير الروح. فليس قيام الناس بالاعتراف للقسيس لتخليص أرواحهم قاصرا على حالة المشهد المادى للقتل والدم) .

لذلك كان على المرء ان يقتل لكى يطالب بالعقوبة التى تورطت فيها الروح ساعة الميلاد ، فليرحم الله الرجل الذى يشعر باثمه وجرمه ولم تلطخ يداه بأى جريمة قتل . انه قد يصاب بمس. ويخر روسكلنيكوف على ركبتيه ويخبر الناس انه قد قتل امراتين بفاس وهو فى حالة هادئة ومع سبق الاصرار (أرجوكم أيها القوم الطيبون ألا تتصوروا جريمة أبشع من هذه فى تاريخ القلب) ويصدر عليه الحكم ويذهب الى سيبريا وعلى شفتيه أغنية . ما أعجبه من انحراف انه الآن وقد تلطخت يداه بجريمتى قتل يشعر لأول مرة فى حياته انه برىء كل البراءة ، كأنه ملاك يستشهد فى نشوة النعيم .

فيهمس دستويفسكى (قل لى هل هناك اله ؟) فيجيب صوت كأنه يخترق الحجب البعيدة ، ويقوده كدانتى عبر مهاوى أولى اللعنة (انما أنقذ الانسان وجود

الشيطان . فعن طريق الشيطان وحده قد كسب الانسان الضمير) .

- ٦ -

وكان فيودور دستويفسكى يشرب الشاى مع الشبان والشابات اللائى حضرن لمحادثته فى امر المصير الاجتماعى للانسان . فلما أعربوا عن حلمهم فى عزل القيصر واقامة جمهورية فى روسيا على غرار الجمهوريتين الفرنسية والأمريكية عاد عقله القهقرى الى أيام كان منفيا سياسيا. فى زمرة القتلة الذين أستخدموا الفأس والبندقية .
وهز رأسه فى حزن قائلا (ريثما أيها الأطفال. ان ما نحتاج اليه لاعادة بناء العالم ليس هو العنف ـ بل العمل العظيم ، الثورة العظمى المنبثقة من الضمير) فأجابوه وأعينهم تقدح بالشرر (ولكن كيف لك ان تلهم الناس جميعا هذا العمل العظيم ، تلك الثورة النابعة من الضمير كما تدعوها ؟) .

فرد عليهم دستويفسكى بقوله (وماحاجتكم الى دعوة الناس ؟ الا تدركون مايمكن أن تبلغه قوة رجل صحيح واحد ؟ انه لايكاد يظهر رجل صحيح حتى يمضى الجميع فى اثره) .

ثم تهدأ عيناه وكأنهما النجم المتلألىء ، وتنتقل حياة صوته الى حياة قلمه ، فيجرى قلمه بتصوير رجل نبيل كامل ، شخصية من الجمال الخالص ـ الأمير (مشكن) وهو مصروع معتوه أطلق من مصحة العقول. وماابسط عقله وما أقوى ثقته بالطبيعة البشرية . انه فى عالم المحتالين فيضربونه ويسرقونه ويكادون يقتلونه فلا يمد

اصبعـــا ليردهم عنه ، انه يرفض ان يكون عليما بدناءة الناس، وهذا ما يحفظهم عليه ـ انهم يستطيعون اختلاس أى شيء منه عدا ايمانه بطيبتهم ، فهم اذا اعتدوا عليه ربت عليهم فى حنان ، كأنما هم يعانون الأذى وليس هو. وسرعان ما أخذ أفرغهم رأسا يدرك انه انما يعيش فى مستوى من الشعور أسمى من مستواهم .

ولـكنه ارتفاع تدور منه الرءوس ولابد لكل الناس من السـقوط آخر الأمر، فيقع صاحبنا فى حب امراة ساقطة ، فيقتلها عاشق آخر من سكان الأرض فى ثورة مخافة ان يحظى بها غيره . فاذا هرع الناس الى الغرفة وجدوا ان القاتل قد غطى الجثة بالقماش المشـمع ، وأحاطها بقارورات العقاقير لمنع العدوى ، ووجـدوا القاتل فاقد الوعى تماما حانقا مغيظا ، وكان الأمير يجلس الى جواره على الأرض دون حراك ، وكلما انطلق المريض يصيح ويرغى ويزبد ، سارع بامرار يده المرتعشة على شعر رفيقه وخديه ، كأنما يريد أن يرده الى الهـدوء والطمأنينة . لكن القاتل وا أسفاه لم يعرف أحدا ممن أحاطوا به .

ولم يزل دسـتويفسكى يتعمق غورا بعد غور حتى وصل الى أبعد أغوار قلبه . ويصير منظره عجيبا أثناء الأعوام الأخيرة من حياته . ويذهب الى حديقته ، وقد انحنى رأسه من ثقل أفـكاره .

ما هذا المخلوق الذى ركب من طل ولهب ، ذلك الملاك الشيطان ، الحكيم فى حماقته الأحمق فى حكمته ؟ ان دستويفسكى يخلق أشخاصه معتوهين ومجرمين وحكماء وقديسين ، ويطلب الى كل منهم بلا استثناء جوابا عن أحجية الحياة . وانه ليضرب فى الطرقات وينصت الى

من يمر بهم من الناس ، لعله يجد الجواب فى كلمة أو ايماءة أو بسمة أو ايماضة وجه بنشوة الأمل .

وكثيرا ما كانت أفكاره تسمو به الى مستوى يعلو ادراك اخوانه من البشر . انه ليحلق بأجنحته عبر الفضاء ويرى شمسا جديدة (كان البحرالزمردى الباسم يداعب الشطآن فى حنان ، مقبلا فى حب ، حب ظاهر تراه العين ويكاد ينبض بالشعور .. كانت الأشجار الباسقة الرائعة تقف فى روعة الأزهار الكاملة ، وأوراقها التى لا تحصى تحيينى فى صوت حلو مهدهد ، كأنما هى تتحدث بالحب . وكان العشب قد اشتعل بألوان براقة حلوة العبير. وأسراب الطير تدور فى الهواء ، ثم تستقر فى اطمئنان على كتفى ويدى . وتقرعنى جذلى قرعا خفيفا بأجنحتها الصغيرة المرتعشة .

كانت هذه هى الأرض قبل أن يدنسها الظلم ، وحين كان يقطنها قوم لم يعرفوا الخطيئة بعد.. لقد أرونى أشجارهم . ولكن لم يسعن فهم أغوار حبهم وهم ينظرون اليها . وانى لمقتنع بأن هؤلاء الناس كانوا على نحو ما متصلين بالنجوم فى علياء السماء . لم يكن لديهم دين . بيد انهم كانوا يعلمون علم اليقين انه حين يسمو سرورهم الأرضى بحيث يبلغ حدود طبيعتهم الأرضية فسيفتح .. منفسح اكبر للاتصال بالكون كله . كان كلهم مستهاما بصاحبه الى أقصى حد ، وعلى أوسع مدى .. ونظروا الى بأعينهم التى تضىء بالحب .. فأفسدتهم جميعا ! فكيف أمكن أن يتم ذلك ؟ لست أدرى .. وكل ما أدرى انى كنت سبب النكبة. فتعلموا الكذب واحبوه وادركوا جمال الأكاذيب .

وما أسرع ما اريقت اول قطرة من الدم وشرعوا

يتحدثون بلغات مختلفة وشرعوا يعرفون الحزن ويحبونه. ويتوقون الى العذاب ، ويقولون ان الحقيقة لا تنبت الا من الألم . فاذا أغضبوا تكلموا عن الأخوة والانسانية.. واذا اقترفوا الجرائم اخترعوا العدالة، ووضعوا لأنفسهم قوانين كاملة لدعمها ، ودعما للقوانين أقاموا المقصلة . انهم لايكادون يذكرون ماخسروا .. وأخذ يظهر رجال يفكرون فى طريق يهيىء لهم الاتحاد ، على نحو لا يكف فيه أحدهم عن ايثار نفسه على الناس جميعا ، ولكن يمكن بفضله الا يقف فى طريق غيره .. وقامت من أجل هذه الفكرة حروب كاملة .. فبكيت من أجلهم رثاء لهم، ومددت اليهم يدى متهما لاعنا ومزدريا نفسي. وفى يأسى ذكرت لهم ان عملى قد انتهى .. وضرعت اليهم ان يصلبونى ، وعلمتهم كيف يصنعون الصليب .. ولكنهم اكتفوا بأن سخروا منى ، وانتهى الأمر بأن ظنوا بى الجنون .. ثم أفقت من نومى فرفعت يدى ودعوت الحق الأبدى) .

ثم جاء الجواب أخيرا عن الطريق الملتوى لانحراف البشر وحماقتهم والمهم (لسوف يأتى .. الرجل الاله الذى سخر منه الناس وعدوه فى المعتوهين . وسوف يتعلمون أن يتبعوه حين يعلمهم حقيقة معنى الخير والشر - ان من ينزل الألم ومن يعانيه ليسا شخصين مختلفين ، بل هما ذات الشخص ، وذات الروح . وان كل انسان مسئول عن عمل الجنس البشرى بأسره ، وان الجنس البشرى بأسره مسئول عن عمل كل انسان ، وسوف يأتى ذلك المنقذ المعتوه .. الى هذه الأرض حيث الانسان يبدو حقيقة ، وما هو الا طيف ، ويبدو الاله طيفا وهو الحقيقة. سوف يأتى آخر الأمر ويلقننا الحقيقة الحيوية الوحيدة ، ان كل الناس من أسمى

القديسين الى أدنى القتلة يتلمسون نفس المصدر بطرق شتى ، مصـدر النور ، نور الوحدة العالميـة والحب العالمى) .

ويجلس دستويفسكى ويمسك براسه . وسرعان ما يشعر بعرق عجيب على يديه . لقد تخضبت يداه بدم من رئتيه .

(وليست الحياة أهلا للزراية ولا الموت أهلاللخوف).

وتضع زوجته الباكية واطفاله الباكون شموعا حول جثمانه ، ويبعث حكماء روسيا جميعا برسائل العزاء ، وينشد التلاميذ ، خاصـة من تعلموا على الرهبـان ، صلواتهم طوال الليل .

(أبنائى : لنقصر عن التشوف الى حياة أبدية فى المستقبل ، أبنائى : اذا نحن لم نبلغ الأبدية فى هـذه الحياة فلن نبلغها أبدا . فالأبدية هنا .. الآن . فثمة لحظات لابد أن ندركها ، لحظات من الوجود الأسمى ، يقف عندها الوقت لا يريم ، وتستغرق حيـاتك كل حيوات الجنس البشرى كله . تلكلحظات أبدية ..) .

اناشيد لا تنتهى . ثم يدفنونه (ان هـذه اللحظات الكاملة الخارجة عن مجرى الزمان ، هى التى يتحرك نحوها الجنس البشرى بأجمعه) فليس معنى الحيـاة انتقال الانسان من جيل الى جيل ، بل تحول الانسان من وحش الى ملاك . من الخاطىء الى القديس. والحياة صعود متصل من المستوياتالدنيا للادراك الىالمستويات العليا .. حتى تغدو أسمى لحظات القديس ، الايمان الخالد للخاطىء . « والخلق كله ماض من الظلام الى النور » .

ليـوتولسـتوى

(١٨٢٨ — ١٩١٠)

— ١ —

كان تولستوى من هؤلاء القلائل ، الذين لم يرفعهم عن طبقات الشعب طموح فذ ، بل لقد نزل بهم الى هذه الطبقات قلب فذ ، فكان شأنه شأن بوذا ، ذلك العظيم الآخر الذى تواضع فارتفع .

فتولستوى قد تحدر من سلالة طويلة من الأمراء ، وكان أحد أجداده صديقا حميما لبطرس الأكبر. ولد فى يسنايا بولنايا عام ١٨٢٨ وفقد أمه وعمره سنتان ، وأباه وعمره تسع سنوات فكفلته وأخويه وأختيه سيدة تمت اليهم بسبب من القرابة هى « العمة » تاتيانا ، وكانت امرأة تمتاز بميزتين بارزتين هما الصفاء والود . وتشوبها رذيلة واحدة كبرى ، هى صحبة أهل البلاهة من الحجاج فهى تعدهم من المتصوفة والقديسين .

وكان تولستوى يستمع الى قصص هؤلاء الحجاج . فكلف منذ حداثته بما وراء الطبيعة . وهـــو كلف لم يستطع قط ان يخلص منه تماما . فظل حتى آخر أيامه نهبا لأحلام اليقظة ، والشطحات الصوفية ، التى طالما غامت على عقل من اسمى عقول القرن التاسع عشر .

وكان فى المدرسة من أشد التلاميذ تخلفا . وكان من عادة مدرسيه ان يصفوا ليوتولستوى واخويه قائلين :

اما سرجى فمقبل كفء . واما ديمترى، فمقبل لكنه غير كفء . واما ليوفلا هو بالمقبل ولا بالكفء .

لكنه ينظر الى الحياة نظرة الجد الصارم . فقد علم وهو صبى لم يجاوز الخامسة أن الحياة ليست متعة وتسلية ، بل هى كد بالغ العناء . وفى عامه السادس عشر كفر بالكنيسة الأرثوذكسية (اليونانية) واعقب ذلك عصر من التجول الفلسفى فى (صحراء المراهقة) على حد تعبيره . فانتقل من الدين الى اللا ادرية ومن اللا ادرية الى الكفران بكل شيء . وأخيرا شارف البأس حين بلغ عامه التاسع عشر .

كان الباعث الأكبر على تعاسته أنه ذو جسم غير شائق . فهو شديد النهم الى اعجاب الناس به . وانه ليكتب فى يومياته « اريد ليعرفنى الجميع ويحبنى الجميع » لكنه يؤمن الا سعادة فى العالم لمن حرم الفتنة كما حرمها هو . فقد كان وجهه دميما كوجه القرد . فعيناه صغيرتان غائرتان ، وجبينه منخفض ، وشفتاه غليظتان ، وأنفه ضخم بصلى الشكل ، وأذناه غاية فى الضخامة ، كان له عقل بارع الجمال فى جسم بالغ الدمامة ، وبلغ من احساسه بأنه منفر ان قرر الانتحار.

لكن عدل عن رأيه لحسن الحظ وأسرف على نفسه فى الملذات يلتمس بها النسيان الوقتى لتعاسته ، بدل التماس النسيان الدائم فى الموت .

ثم استكشف روسو ذات يوم .

وكان هذا الكشف هو الدعامة الروحية التى يحتاجها وقتئذ على التحديد . فأزال برمه بدمامته . وفتح عينيه لجمال الطبيعة . لقد كفر بدين الكنيسة . فهو الآن

يعتنق دين روسو ويعبده كأنه اله ، ويتخذ حول عنقه قلادة تمثالا صغيرا لروسو وكأنها من الصور المقدسة.

وجاءت قصته الأولى (مالك روسى) من الهام فلسفة روسو. وتعالج هذه القصة المشكلة التى سوف تشغل تولستوى طول حياته . مشكلة الصراع الخالد بين المثل الأعلى الذى يحيا له النبى ، وازورار الجمهور وعدم اكتراثه . فبطل القصة ويدعى الأمير نيخلودوف قد هجر الجامعة ليساعد فلاحيه . ولكن فلاحيه يؤثرون البقاء فى حمأة الهوان ، شأنهم فى ذلك كشأن أكثر من اصيبوا بالاهمال وقلة الاحتفال . فهم يستطيعون فهم السيد الظالم الذى يلهبهم بالسياط . لـكنهم لايكادون يعرفون ذلك السيد الرفيـق بهم . ماذا يكون ؟ انهم يجفلون منه ويهزءون به ، وينظرون الى عونه المبذول نظرة المرتاب . وهو عندهم اما جاسوس ، أومحتال ، او ابله ، أو اى شىء ، الا أن يكون رجلا لايبغى غير صداقتهم .. فينهزم نيخلودوف ويجلس الى (البيانة) يعبث بمفاتيحها وليس هو بالموسيقى الموهوب . ولكن خياله يصوغ الأغنية التى عجزت عن عزفها أصـابعه غير الرشيقة ، فيسمع زمرة ترنم ، وفرقة تعـزف ، ويمتزج الماضى والمستقبل فيتحقق حلمه ظافرا .

انه ليرى الفلاحين الروس ، لا فى كل دمامتهم ، بل وفى كل ظرفهم كذلك . فيغفر لهم جهلهم وكسلـهم وعنادهم ونفاقهم وارتيابهم ، ذلك بانه لايقتصر الآن على النظر الى ظواهرهم . بل انه ينظر أيضا الى بواطنهم . فيرى آلامهم وصبرهم وبشاشتهم ورضـاهم الهادىء بالحيـاة واستسلامهم الشجاع اذا واجههم الموت . ويغمغم قائلا (جميل) .. فهم ان يرفضوا ماعرض عليهم .

فهو الآن يفهمهم ويحس احساسهم لأنهم جميعا اخوة. هو والفلاحون من لحم واحد ودم واحد .. كلهم رهط من الفلاحين لا حول لهم ولا قوة ، يعيشون ويكدون ويموتون تحت سياط مالك الأرض الذى لايرحم ، أعنى به القدر .

- ٢ -

وما اقبل عام ١٨٥١ حتى كان تولستوى قد فقد ماله فى المقامرة ، وفر الى القوقاز لينجو من دائنيه . وانضم الى جيش كان أخوه من ضباطه .

لقد كان تولستوى فى عامه التاسع عشر يتمنى لو يموت . أما الآن وقد بلغ عامه الثالث والعشرين فهو وطيد الايمان بالحياة . فقد تخلىعن شكوكه الفلسفية، واحساسه الجارف بالخطيئة وعاد الى شغفه بالتصوف والنسوة الجميلات . فهو كفاوست فى شبابه ، يقبل الحياة ويجد فيها لعبة يحلو له العبث بها . فالتجارب جميعا طيبة ما أضافت الى حظنا من السرور. ويقول فى القوازق « ليس من شيء يقال له خطأ . ولئن تستمتع بفتاة جميلة لما فارقت اثما وانما قدمت آية على حسن الصحة » .

لقد غمس نفسه فى جمال الجبال وحارب وقامر واحب وابدع الروائع الواقعية الشعرية : حكايات الطفولة واقاصيص الحرب ، وقصص القوازق ، والمقالات والخطابات التى فاض بها قلمه فى تتابع سريع كأنه تدفق السيل .

وكان من اثر استغراقه فى عمله الأدبى انه لم يكد

يلتفت الى واجباته الحربيـــة . فهو مستهام بالخلق ، قليل العناية بالهدم والتدمير. وهو على اعتزازه بسترته الحربية بما تحمل من اوسمة جميلة وازرار نحاسية ، قد اخذ يرى الحرب فى الوانها الحقة فهو فى (الغزوة) التى كتبها فى عامه الرابع والعشرين يبعث بأولى صيحاته محتجا على الروح العسكرية : (هل استحال على الناس اذن أن يعيشوا فى سلام فى هـذا العالم الملىء بالجمال تحت هذه السماء المرصعة بالنجوم والتى تنفســح الى غير نهاية . كيف استطاعوا فى مكان كهذا ان يبقوا على شـعورهم بالـكراهة والانتقام وحب القضــاء عـلى بنى جنسهم ؟. ان كل ما انطوى عليــه القلب البشرى من الشر ينبغى له ان يتبخر اذا مسته الطبيعة ، وهى أصرح وأصدق من تكلم عن الجمال والخير) .

حتى كان ذلك الوقت لم يشهد فى مناوراته العسكرية غير تمثيل الحرب . لكنه فى عام ١٨٥٣ يواجه الحرب نفسها مواجهة واقعية . لقد أعلنت روسيا الحرب على تركيا ودعى تولستوى ليؤدى واجبـه ليزيد من مجد القيصر .

وكان فى أول الأمر تجرفه حماسة وطنية وما أسرع ما استحال وحشا مفترسا كغيره من شباب أمته . فقد طغت عليه موجة من الحماســة الفاسضة فذبح الأتراك وحمد الله على نصيبه من المذبحة .

ولــكن لم يمض زمن طويل حتى افاق من نشــوة التقتيل . فقد الف فى خلال حرب القرم ثلاثة كتب أولها يتوهج وطنية متطرفة مسرفة . ويتحدث فى ثانيهاحزينا عن تبادل التقتيل بين بنى الانسان . وينعي على حكام

العالم فى مقدمة الثالث انهم جعلوا من رعاياهم وقودا للمدافع .

وكلما أطال النظر الى الحرب استبانت له فى كل بشاعتها ونكرها . فهو منذ اليوم مكرس نفسه لحرب عالمية ضد الحرب . كتب فى مفكرته فى الخامس من مارس سنة ١٨٥٥ (لقد اهتديت الى فكرة عظيمة ، أحس بقدرتى على أن أقف عليها كل حياتى . تلك الفكرة هى انشاء دين جديد) . دين اللامقاومة . دين الأخوة الدولية دين السلم العالمية .

— ٣ —

وفى عام ١٨٥٦ اعتزل تولستوى خدمة الجيش وعاد الى سانت بطرسبرج (لينينجراد) وكانت شهرته فى الجندية والكتابة قد سبقته الى هناك ، ففدا فى الحال علما من أعلام الأدب ، فرحب به أعلام التأليف والفن فى المدينة فى مجالسهم الخاصة . لكنه وجدهم جميعا من المدعين الذين لايلائمونه فهم يرون انهم الصفوة المختارة وانهم أصحاب عقول سمت على عقول البشر .. وانهم فخر الخليقة وتاجها . وهم يكتبون لأهل الثقافة والفكر ، أما باقى البشر ففير جديرين بأن يسهموا فى أفكارهم السامية . أما تولستوى فموقفه على النقيض من ذلك تماما . فالأدب عنده هو انجيل الجمال والحكمة الذى يجب ان يملكه الجميع . فكتب ليعلم الكثرة بدلا من يكتب لتسلية القلة .

وانه ليكتب للعامة وهو يعلم حظهم من الذكاء حق العلم . يدرك تماما جانبهم الزرى الوقح ، لكنه يشعر

كما يشـــعر الأمير (نيخلودوف) انهم يتحسسون النور بغريزتهم ، وانما هم ينتظرون زعيما معلمـــا يهـــديهم السبيل « اذهب الى الناس لتعلم مايريدون وحاول ان تفهم ما يحتاجون ، واعنهم على تحقيق حاجتهم » .

وأنشأ مدرسة لفلاحى (ياسيا بولبانا) وحاول فى هذه المدرسة الا يجعل من نفسه أستاذا ، بل تلميـــذا من التلاميذ . ذلك بأنه يعتقد انهم جميعا ليسوا غير أطفال يحاولون تهجى المقطع الأول من كتاب الحياة الغامض .

وقد أغلقت الشرطة المدرسة ، وقدمت النصيحة الى تولستوى بأن يدع الفلاحين وجهلهم ، ثم اقبلت أشهر من المرض واليأس . فمات اخوان له من السل، وخشى تولستوىأن يكون هو الآخر قد أصيب بنفس المرض. ففقد ايمانه بالخير وبكل شيء ، وفكر فى الانتحار مرة اخرى .

فى هذه المرة انقذه الفن ، وحبه لفتاة فى السابعةعشرة هى (صوفيا اندريانينا بهرس) .

وتزوج من هـــذه الصبية وكان عمره ضعف عمرها تماما .. ثم بدأ فترة من السعادة الصافية امتدت نحو خمسين سنة . وكانت الكونتيسة تولستوى موهوبة فى بابها . فقد صارت « الزوجة الصحيحة لمؤلف » اذا أستعرنا عبارته . فهى تكتب ما يمليه عليها ، وتستثير خياله ، وتشجعه ، وتبذل جهـــدا مضنـــيا فى نسخ مخطوطاته ، وتكون نموذجا لبعض من افتن شخصياته.

وكتب تحت تأثير سعادته آيتين من أعظم آياته .. مأساة العاطفة الفردية (آنا كارنينا) وملحمة العذاب (الحرب والسلم) . فى قصة (آنا) زوجة (كارنينا) يكمل

تولستوى موضوع قصيدة جيته التى يقول فيها (ان القوى السماوية تأتى بنا الى الحيـــاة وتضـــطرنا الى الخطيئة ، ثم تدعنا لخطيئتنا والمنا) فتظل (آنا) أعوامها الثمانية الأولى من حياتها الزوجية مخلصة لزوجهـــا سعيدة بحب ابنها الصغير (سيروز) وبعبد الطفل أمه كأنها الهه . وكانت الأمور ستجرى رخاء لولا ان (آنا كارنينا) قد زارت أخاها (ستيبان) زيارة مشئومة فى موسكو .

فهنا فى صحبة النبلاء الروس المرحين الذين لا قلب لهم ، تقابل السيدة الكونت (فرونسكى) وهو شاب دمث وسيم ثرى ، يحب الجواد الطيب والحرية الطيبة والمرأة الجميلة . فما أسهل ما وقع كل من (آنا كارنينا) والكونت فرونسكى من نفس صاحبه . ولم تكن (آنا) أولى ضحايا فرونسكى فهو حين لقى (آنا) كان متورطا فى غرام أخت زوج ستيبان وكانت ممثلة ناشئة ساحرة محبوبة ، من فتيات موسكو ، وكان (لكيتى) كثير من المعجبين . لكنها تؤثر عليهم جميعـــا اثنين ، فرونسكى الذى تحبـــه ، وكوستانتين الذى تعجب به وكان (كوستانتين لفين) هذا نبيلا من موسكو شابا ميسورا جادا ذا عقل كثير الريب . فهو يعجز عن التصديق كعجزه عن التكذيب وهو يتفرج كما يتفرج العاجز الساخر بينما تتكشـــف المأساة لعينيه . فهو يلاحظ آنا وفرونسكى كيف ينجذب كل منهما الى صاحبه دون ان يكون لهما فى ذلك اختيار. وان الفريستين لتدركان ذلك ، وان لم تستطيعا شيئا لوقف هذا الانجذاب .

و(آنا) شـــديدة النهم الى حب فرونسكى وشـــديدة الخوف من هذا الحب فهى تحن الى حب ابنهـــا لهـــا

وحماية زوجها اياها ، فتقرر ان تختصر زيارتها لموسكو وتهرب من افتتانها وتبتاع تذكرة الى سانت بطرسبرج. وفى القطار تجد فرونسكى . لقد قرر أن يتبعها .

ويتقابلان كثيرا فى مجتمعات سانت بطرسبرج. وينظر المجتمع الى علاقتهما نظرة الرضا الذى يحبس الضحك. انها مسلاة ممتعة .

أما زوج (آنا) فيظهرها على حماقتها فى هدوء . ثم يغمض عينيه فى حكمة . فهو راغب عن التورط فى فضيحة طلاق ، زاهد فى تعريض حياته لأخطار المبارزة .

لكن الأمور تسير الى غاية اذ يحدث حادث فى سباق الخيل ويصاب فرونسكى اصابة بليغة وتبدى (آنا) قلقها أمام الملأ . فاذا عنفها كارنينا اعترفت له بحبها لفرونسكى .

وتضرع (آنا) الى زوجها أن يسرحها . لكنه يصمم على الانتقام ويضطرها أن تبقى تحت سقفه .

ورغم مايصيب (آنا) من عذاب وهوان وقهر ، فانها تقيم على علاقتها السرية بفرونسكى ، تمزقهـــا ثلاث عواطف : حبها لولدها الصغير سيروزها وولاؤها لـكيتى التى غصبت منها فرونسكى ، وحبهـــا لفرونسكى . وتستطيع كيتى آخر الأمر أن تنسى فرونسكى وتتزوج من كوستانتين لفين . وهكذا تزول احدى الصـعوبات من موقف (آنا) لكن الصعوبتين الآخريين : حبها لابنها وحبها لفرونسكى لايزالان على عهدهما فى منتهى المرارة والشدة .

وينشأ الآن تعقيد جديد اذ تضع آنا مولودة ، ويبدو كارنينا سمحا شهما نحو ابنة فرونسكى ولكن فرونسكى

فى هوانه وذلته يحاول الانتحار .

وساء موقف آنا فصار لايحتمل فان عليها ان تختار بين (سيروزها) وفرونسكى فتختار فرونسكى .

لكن القصة لم تنته بعد . فلا يزال لدى الكاتب خيط يسهم به فى خطة القصة . فتسافر آنا وفرونسكى خارج البلاد ويمضى وقت يصيبان فيه شيئا من السعادة من حبهما المحرم .

ثم يعودان الى روسيا ليستأنفا رجاء كارنينا ان يطلق آنا . ولكن كارنينا يرفض الطلاق. فيشتمل على آنا الهم وتوعك المزاج . ثم يأخذ لهب الغيرة فى القضاء عليها فهى تتهم فرونسكى بالخيانة . وليس لها من منقذ غير النسيان .. ذلك الموت ابان الحياة الذى يجلبه المورفين. ثم تكون النهاية انتحارها تحت عجلات القطار.

فى (آنا كارنينا) يصور تولستوى الصراع الروحى فى الفرد وفى (الحرب والسلم) وهى قصة تعالج غزو نابليون لروسيا ، يصور الصراع الروحى فى الجنس البشرى ، وجهاده فى الانتقال من الهمجية الى المدنية ومن سفك الدماء الى الوئام ، ومن الكراهة الى المحبة. اذ لايكفى حل المشكلة الفردية ولابد من حل مشكلة البشر كافة. فحين استلقى الأمير اندريه بطل (الحرب والسلم) جريحا فى استرلتز تراءى له فجأة معنى السلام الذى يبطنه العالم (رأيت السماء التى تترامى الى غير امد تتأمل مطرقة هياج الأرض وتفاهتها) وقد ملأته هذه اللمحة بسرور لايوصف . فهذا السلام الباطن ، هذا النور الذى يومض بين الحين والحين فى ظلام الحياة ، هو شىء يتلهف تولستوى على ان يظهر عليه بنى جنسه.

ومع ذلك فهو يشعر انه لايستطيع ذلك عن سبيل فنه.

فأخذ يفكر فى نوع جديد من الفن . فن ايجاد سبب من الرحمة يصل بين الانسان وأخيه الانسان ، ليهدى الناس الى النور ، لقد فقد ايمانه بالكنيسة الأرثوذكسية، ولم يهتد الى عقيـــدة أخرى بدلا منها ، ماخلا اعجابه المؤقت بروسو.

وعاد تولستوى الى الكنيسة أثناء بحثه عن العقيدة الحقة فبحث مبادئها وعباداتها ، وظل ثلاث ســنوات لايتخلف عن شىء من طقوسها ، ولكن لاجدوى « أخشى ان يكون تشددى فى اتباع سنة المسيح حائلا بينى وبين التقليدية ، فالـكنيسة الروسية قد صــارت مؤسسة تجارية فيما أعلن . فما أبلغ تشدد القساوسة فى فرض أوامر القيصر، وما أشد تهاونهم فى فرض أوامر المسيح» .

« وهكذا قطع مابينه وبين الكنيسة ووصل ما بينه وبين الله » فأصبح نبى دين جديد أو بعبارة أدق صار مفسرا جديدا للدين الذى كاد أن ينسى ، دين بوذا واشعيا وكونفوشيوس والمسيح ، هذا الدين الذى أمل ان يكون زعيمه المنكر لذاته ولسوف يستغنى عن كل الطقوس والكنائس والقسس : ويعتمد على بعض التعاليم البسيطة (لاتكن لأحد عدوا . أملك زمام نفسك ولاتركن الى العنف) هذا هو الجانب السلبى من عقيدته . أما ناحيتها الموجبة فهى الاحتجاج والانكار فهو ينكر على النبلاء اسرافهم ، وعلى القسس تعصبهم ، وعلى القيصر طغيانه ، « فأصبح شيوعيا ومنشــقا على الــكنيسة وثائرا .. أى صار بايجاز حواريا صحيحا للمسيح»، فهو مستعد لأن يبذل شهرته ومركزه وثروته وحياته نفسها ان تطلب الأمر خدمة لبنى الانسان . انه ليلبس

عباءة الفلاحين ويخالط أحط الناس على أساس المساواة. لقد تواضع فارتفع. فهو قد نزل من عزلته الأرستقراطية الى المستوى العادى للبشر وتمكن بفعله ذلك من السمو بالانسانية الى ذرى جديدة من السمو الخلقى .

وهتف العالم بتولستوى نبيا . ولكن أسرته تعده أحمق . وأخذت زوجته تخشى عليه الجنون . كان أبناؤه يتثاءبون ويشيحون عنه بوجوههم كلما تحدث بالأخوة بين البشر. فحياة الايثار التام قد بدت لهم آية على الجنون لا مراء فيها . انه لابأس عليه مطلقا أن يضحى بنفسه ، كما قالوا . لكن ماحقه فى أن يضحى بأسرته على مذبح مثله العجيبة ، وهكذا أصبح غريبا فى بيته .

كتب رسالة الى صديق « لعلك غير مصدق. ولكن انى لك ان تتصور مدى عزلتى أو مدى زراية الناس بشخصى أو هوان أمرى عليهم . لكنه على ما يلقاه من عذاب عقلى يمضى قدما فى سبيله فيفسر مبادىء المسيح بلغة القرن التاسع عشر» . لقد حاول المسيح أن ينشىء مملكة الله أما تولستوى فيؤمن بانشاء ديمقراطية الانسان فكتب عددا من المقالات والقصص توضح أصول العواطف الانسانية والتسامح مع المسىء . وكان جزاؤه على ذلك ان حرمته الكنيسة الأرثوذكسية من رحمتها عام ١٩٠١ .

فاذا علت السن بتولستوى بدت فى تعاليمه نغمة جديدة غريبة . ذلك بأنه قد صار غريبا بين بنى جنسه وأولاده وزوجته ، فأخذ ينظر الى الاختلاط الجنسى كله فى ضوء عجيب صوفى ، فقد أصبح ناسكا . وكان فى سابق أيامه قد نعى على الفسق ، أما الآن وقد بلغ

السبعين فهو يدعو الى الانتهاء التام عن كل اختلاط جنسي . « ان من نظر فى اشتهاء الى امرأة ، ولو كانت زوجته فقد ارتكب معها جريمة الفسق » .

ان هنالك معنى يدعو الى الرثاء فى نظرة ذلك الرجل العجوز يحاول ان يعيد صوغ العالم بحيث يلائم ما اصابه من خور وعجز ، حتى لقد ذهب الى مذهب افناء الجنس البشرى عن سبيل تقرير العزوبة المطلقة لكن عقله كان ينسل منه حينذاك . وكان التصوف قد ملك عليه زمام امره تماما . فهو فى قصته الأخيرة (البعث) يودع روح قديس خاطىء فى جسم شاب . فشخصية نيخلودوف دراسة فى التناقض . ومما هوجدير بالملاحظة ان تولستوى قد سمى بطل قصته الأخيرة باسم بطل قصته الأولى . ذلك البطل فى القصة الأخيرة يبدأ محتالا وينهى حياته شهيدا . ويعترى هذا الرجل فى ظرف أعوام قليلة من التحول الخلقى ما كلف تولستوى عمره بطوله . وان البعث لمن أجمل قصائد الرحمة ، ولكنها من نتاج رجل عجوز .

— ٤ —

كانت مأساة تولستوى ان الحياة قد امتدت به بعد ان فقد عظمته . وجعل فى الأعوام العشرة الأخيرة من حياته يدعو الى مثل اجتماعية وسياسية وخلقية ، ليس اليها من سبيل الا فى عالم المثل انعليا ... اوعالم العجائز . وكلما مر الزمن زاد ايغاله فى الفلسفة الساذجة . وجاء آخر فصل من حياته كما جاء كل ما فعل طوال حياته مزاجا عجيبا من الغباء والسمو .

فاذا حل يوم ٢٨ من اكتوبر عام ١٩١٠ وكانت الساعة الخامسة صباحا . هرب تولستوى من مأواه فى بيته . ومضى يبحث عن السلام فى العراء ، وكان فى عامه الثانى بعد الثمانين . وكان يلبس قميص الفلاحين ، وقت أن أضفت السن على وجهه جمالا ، ورسم الألم فيه غضونا ، وجعل يهيم كما فعل بوذا ، ويخبط فى شعاب الأرض. لقد هجر بوذا بيته يلتمس الحياة . أما تولستوى فقد مضى عنه يلتمس الموت .

اراد أن يموت وحيدا ، لقد وهب حياته الشخصية للرحمة والرثاء ، ولكنه يفر الآن من رحمة ذويه ورثائهم ، وظل أياما عدة يتنقل من قرية الى قرية ، وسقط آخر الأمر على قارعة الطريق ، ليرقد رقدته التى لاينهض منها أبدا . ويقول للطبيب الذى عاده (ان فى العالم ملايين من البشر يتوجعون فلماذا لاتفكر الا فى) .

فاذا كان يوم الأحد ١٠ نوفمبر عام ١٩١٠ وجد السلام الذى ظل ينشده طول حياته ، وكانت الساعة قد جاوزت السادسة صباحا بقليل حين استرخى جسمه الحطيم من الألم لهذا الخلاص العظيم الأخير. « يا لك من أخ مبارك أيها الموت » .

جي دي موباسان
(١٨٥٠ – ١٨٩٣)

– ١ –

ولد بقصر ميرونمسنل بنورماندیا ، وكان ينحدر من جهة الأب من سلالة ارستقراطية تدهورت الى مباءة الافلاس ، وكان ينحدر من جهة أمه من سلالة من العامة سمت الى الخلق الفني – فكان دمه مزاجا عجيبا من العناصر – نار الاباحية ، وحساسية الخيال ، ومرارة خيبة الرجاء ، والايقاع الشعرى البارد للبحرالنرمندى.

كان أبوه اباحيا يخالط النساء ، ساميهن ودانيهن ، وكانت أمه حالمة تجلس تلتمس الدفء فى لهب الذكرى، ذكرى أخيها الشاعر الذى اخترم عبقريته الموت العجلان. لقد عرفت الرجل الكامل فى أخيها ، فعرفت كيف ترثى للحطام الملتوى فى زوجها . وكانت تعيش على الأمل الدائم .. انها فى ابنها ستعيد صوغ الحطام الى رجل سوى .

ونشأ الطفل الذى انعقدت به آمالها يفهم الرجل الداعر ويعبد الالهة النقية . وكان كلما تشوش فكره لهذا الاتحاد التعس للأمزجة التى منها تخلق ، ذهب الى البحر فوجد فى وجه البحر كل سرور الخلق ووحشيته، وكان (جى) يعتس حول الكهوف على طول الشاطىء ، وفى أثره كلبان ، وينفح الصيادين الهبات ليصطحبوه فى بحثهم عن السمك فى ضوء القمر .

وكان يشارك فى كل مباهج الفلاحين النرمنديين فى هذا الضباب الأغبش ، والهواء البارد ، الذى يهفو من البحر كأنه نسيم يبعث الحياة ، وكان يراقص الفتيات الفلاحات فى المواسم الريفية ، بينما القيثارات تعزف لحنا ضاحكا تحت أشجار التفاح ، ويسير مع مواكب الرجال التى تحمل المشاعل كأنها ثعابين حمراء فىالليل.

وكان يتناول قطعة من الجبن ، ويعب كأسا دهاقا من خمر التفاح مع اى صديق أو شخص غريب فى المنزل ، وكان يرسم الخطط الواسعة مع قدامى البحارة على التلال ، ويشرف معهم من خلال مناظيرهم المقربة على حافة المجهول (ان عروقى يجرى فيها دم الجائلين فى البحر، وابهج ما يبهجنى هوأن أبحر بقاربى ذات صباح ربيعى الى موان مجهولة) .

كانت حياته دفعة عاطفية من الشمال البارد . ولكن أمه ، وأحبب بها من أم ، قد صممت على ان تتحكم فى الريح وتحدد اتجاهها . فبعثت به وهو بين العاشرة والعشرين الى المدرسة الكنسية فى (ايفيتوت) ولكن (جى) لم يكن يبغى أن يصير قسيسا . فأحدث ثقبا فى برميل النبيذ بمخزن كبير الآباء ، ودعا رفاقه فى المدرسة أن يشربوا على حساب مائة قداس . وقارف بعض المخالفات الأخرى فطرد ... الى الحرية .

وكان يحب دعاباته العملية . تنكر يوما فى ثوب شابة وقدم نفسه الى عانس انجليزية . فقالت العانس فىخلال الحديث (تقولين انك قد أتيت من سفر طويل ، فمنأين اتيت؟) (لقد اتيت لتوى من نوميا) وهو موطن فرنسى للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة .

فاستمرت المرأة المذهولة تقول فى قلق (فتاة صغيرة تسافر وحدها ؟)

«ولكن ـ كما ترين ـ لى خادمتان» وضيقت فستانها فى خفر وفى عينيها معنى بعيد (ولى أيضا فارس وجندى مدرع لحراستى) . فلما سمعت العانس هذا الكلام كاد يغمى عليها .

وقد اتخذ عشيقته الأولى وهو فى عامه السادس عشر، وكان يدعو نفسه (بالنهم الى الحياة) وسرعان ما قدم له عالم نرمنديا الصغير كل ما لديه من رقة ومتعة .

ـ ٢ ـ

والتحق باللوقيون ليعد نفسه لدراسة القانون ، ووفق الى الحصول على درجة مقبول . ولكن حدث بعد ذلك الغزو البروسى عام ١٨٧٠ عن طريق سيدان. فالتحق موباسان بقسم الامدادات بجيش فرنسا ، ولم تكن حياته مبهجة .

وبينما الجيش الفرنسي يتقهقر ، كان يقرأ شوبنهور ويكتب قصائد الغزل ويحلم بالثأر من الألمان . فتشكلت عبقرية الشاب تدريجا من ثلج الكراهة ونار الحب .

فلما انتهى الصراع ، ذهب الى باريس يبحث عن عمل فان دراسة القانون لاتقوى على نفقتها الآن أسرته العريقة التى أصابها الفقر. فالتحق بوظيفة كاتب فى البحرية ، ولم يدر أحد من رؤسائه أو زملائه الكتبة، ان أحد الأسود البشرية الضخمة قد وقع فى الأسر. ولم يدر باقى باريس عنه شيئا أو يحفل بأمره فان خيرا كثيرا

فى عالم هذه المدينة ، يحتجب فى عليات المنازل ، حيث الفنانون والشعراء يتوجهون أحلامهم لعالم لايكترث . وكان موباسان يسير فى الشوارع ليلا ، يتفرس الوجوه تحت مصابيح الغاز بحثا عن علامة يتعرف بها على أحد، عن آية على روح زميل ، فلم يجد .

ثم ناداه داعى الصداقة انه صوت السين ، فهو فى الفجر والمساء وفى أيام الأحد فى الساعات التى لا تخطر بالبال يهدىء فورته الكبيرة بالتجديف فى النهر ذهابا وجيئة .

ان نهر السين قطعة من البحر، وان شذاه ليجذبه من المكتب المغبر، ومن المقاهى العابقة برائحة النبيذ ، ومن احضان النساء المريبات ، انه جنونه وعشيقته وشريكته الحانية القاهرة ، التى تنطوى على المتناقضات العنيفة . نعم انه النهر الجميل الهادىء المتقلب الشذى النتن ، الملىء بالأحلام والأقذار ! وكانت روحه تنضج تدريجا يغلفها الضباب ، وتنزلق بين اخيلة هياكل السفن ومداخنها التى تتحدث فى صفير خشن كئيب ، عند ملتقى العوالم الثلاثة ، السماء والأرض والبحر .

« انى أجدف وأستحم ، وأستحم وأجدف . ولقد تعودت الفيران والضفادع على رؤية الفانوس فوق قاربى فى ساعات الليل، حتى أنها تخرج لتحيينى تحية المساء. وانى أسير قاربى كما يسير غيرى زورقا صغيرا ،وان أصدقائى من أصحاب الزوارق فى(بورجيفال) ليدهشون أعظم الدهش حين أبرز لهم فى منتصف الليل ، أطلب زجاجة من خمر (روم) » . الليل والنهر وروح رجل عظيم واحد .

وقابل (جوستاف فلوبير) عن طريق صلات أسرته ،

وكان مؤلف مدام بوفارى عبقريا بوهيميا يصطنع فى الادب من التجارب مثلما يصطنعه فى الحياة من هم أكثر جسارة . وكان قد قدم للمحاكمة على قصته الصلبة الجبين ، وعاش مهملا كأنه مخلوق محجور عليه ، لايحب أحد أن يلمسه . بيد انه كان غير آبه ، انه لم يمنح العالم غير حطام نحيل لذاته ، ويجلس كأنه اله فى معبد فنه الرائع الذى احتفظ بمفتاحه لنفسه فحسب .

لقد كان يبحث عن حوارى كامل ، وكان موباسان يبحث عن أستاذ كامل .

والآن يلتقى الروحان الهائمان النصفيان اللذان استويا فى الوحشة ، فيندمجان فى روح واحد ، يهيم مظفرا . وعلى انفراد .

وظل (جى) طيلة سبع سنين يأتى أيام الأحد حاملا قصائده ومسرحياته وقصصه الى ذلك العملاق العريض المنكبين ذى الشارب الضخم والعينين القاتمتين ويشهده يجرى قلمه الأزرق فى كتاباته ، فاذا كان المساء افترق الصاحبان بعد نكتة بذيئة من كليهما ، يخفى بها قلبا موجعا .

واستطاع التلميذ تدريجا أن يفقه سرعبقرية استاذه، انها عبقرية مجيد للرماية ، استطاع أن يهتك نفاق الحياة بأسهم فتاكة .

- ٣ -

ومضى وقت طويل قبل ان يحظى موباسان بالتفات الناس ، وكان يعانى الوانا رهيبة من الصداع ، لكنه كان

ينعش نفسه بالفوص من (قنطرة مغرية فى منتصف الشتاء) ويبرز فى المياه المتجمدة ليوجه دعابة بذيئة الى من تجمع من الناس .

وكان يروي قصصا ماجنة لاخوانه الكتبة فى البحرية، ويهمس لمن يقابله من السيدات فى الحفلات بألفاظ يجنح فيها الى التورية . وكان الجميع يقولون عنه (انه أفجر شاب فى باريس) . انه أفجر الشبان والمعهم . وهو على ألمعيته ـ أو قل لألمعيته ـ كان يزج بنفسه دائما فى المتاعب ، فكان الباريسيون ذوو السمعة الطيبة يعرضون عنه ، اذا كتب مسلاة ماجنة وأخرجها عند رسام منبوذ من طائفته .

ودعته الشرطة الى المحاكمة حين نظم قصيدة غير خلقية ، ونشرها على صفحات احدى المجلات المنبوذة .

وظل الصداع يعاوده دائما ، وكلما اشتدت عليه وطأته قضى الساعات يتأمل وجهه فى المرآة . لعله يقاسى من ارهاق شاق فى غرامه ، بفتاة الشارع مثلا التى قابلها مساء الأمس ، تلك الغريبة عليه التى دخلت حياته وخرجت منها ثانية فى خلال ثلاثين دقيقة .

وزاد صداعه وقلقه ، وخصوصا عند مقدم شتاء باريس . كتب الى أمه وكان يعد حبه اياها نقطة الثبات فى حياته « ديسمبر يرهبنى. انه الشهر الأسود ، الشهر الكريه العميق ، الذى يمثل منتصف ليل العام . لقد أعطونا مصابيح فى المكتب ، وفى خلال الشهر سنوقد النار.. وحين اكون وحيدا أمام مكتبى ومصباحى الحزين متقد أمامى ، كثيرا ما تعترينى لحظات يبلغ منى القنوط فيها انى لا أدرى الى أين أتجه » .

ولكنه كان دائما يتجه في النهاية الى قصصه ، فيلتقط حكايات شتيته من شفاه صائدى السمك والفلاحين والممثلات والعاهرات والكتبة . حدث مرة انه كان على مائدة اميل زولا ، وكان المدعوون سابحين فى خيال الشراب ، حين تكلم المضيف عن مبادىء الأدب الجديد الذى يكتبه (لنذكر ان علينا أن نقفز الى النجوم من سلم الملاحظة الدقيقة) .

« واقترح أحد المدعوين ان يكتب كل مناقصته عن حربنا ضد البروسيين ـ لا على النحو الذى سار عليه المؤرخون والساسة فى كتاباتهم عن الحرب ، بل على النحو الذى تخيلته زبانية الجحيم ، وكما وقعت على الأرض . فلنحطم كل خداع ولنبين موطن البطولة الحقة » .

وأسهم (جى) فى ذلك المجلد بقصة عن البطولة الحقة (كرة الشحم) كانت (كرة الشحم) امرأة محترفة من بنات الهوى ، يحبها الناس حين العجلة ويزدرونها حين الدعة . وذات يوم فى خلال الحرب الفرنسية البروسية وجدت نفسها على سفر من باريس الى هافر ، تقلها عربة مع جمع من كرام القوم .

وما كاد هؤلاء القوم الدمثون يتعرفون على حقيقتها حتى نأوا بجانبهم عنها . وباعدوا بينهم وبينها . ولكنهم حين تبينوا انها وحدها كانت بعيدة النظر فأحضرت معها غذاء شهيا نسوا زرايتهم بها ، واقبلوا كراما على ماعرضته عليهم من الطعام . وفى هذا المساء وقفوا عند فندق كان الجنود الألمان قد احتلوه . فأمر قائد الحامية بالقبض على المسافرين أجمعين وصرح بأنه لن يطلق سراحهم حتى تقضى السيدة السمينة ليلة معه . فرفضت

الانصياع لأمره فى غضب ثائر. ولكن رفاق السفر حرصا على حريتهم ضرعوا اليها والحفوا عليها بشتى الحجج حتى استسلمت آخر الأمر .

وفى الصباح التالى استأنف السفر رحلتهم وعادوا من جديد الى النأى بجانبهم زراية بتلك المرأة التي أقدمت على التضحية الكبرى من أجلهم . فهم فى هذه المرة قد احضروا غذاءهم ولكنها نسيت أن تفعل بسبب ما كان من اضطراب ففتحوا حقائبهم وأقبلوا على الطعام نهمين . ولم يعرضوا عليها كسرة من زادهم . فثارت عبراتها وتلألأت فى مآقيها . فغمغموا ورعا وتقى (انها دموع العار) .

فى (كرة الشحم) يبين الكاتب عن سخريته وزرايته بغباء البشر. على انه فى كثير من قصصه الأخرى تتحول زرايته الى العطف . ومن هذه القصص قصته (العقد) ومن النقاد من يعدها القمة التى تناهى اليها القصص الفرنسى .

وقصته العقد هى المسلاة المؤسية لمدام لوازيل، وهى امرأة ولدت جميلة فقيرة كانت تحلم بالأمراء فزوجت من احد الكتبة ، وكانت تحلم بالقصور فسكنت فى دور سفلى حقير . وليس لديهما من طيب ولا حلى فاخر . وقد كانت تتوق الى هذين كما يتوق الأعرابى الذى يجوب البحر الى مسقط رأسه من البيداء .

ولكن بقيت لها نعمة واحدة ، صديقة غنية كانت زميلتها فى الدير ولكنها لم تكن تزور هذه الصديقة لأنها كانت تشقى برؤية الأشياء التى لا قبل لها بشرائها وذات مساء اقبل زوجها الى المنزل جذلان فرحا (اننا مدعوان الى حفلة ساهرة يقيمها وزير المعارف وزوجته).

فقالت (ولكن ليس لدى ما ألبسه) فاشترى زوجه لها فستانا لكنها لم تزل غير سعيدة . (ليس لدى حلى).

(لماذا لاتذهبين الى صديقتك مدام فورستير وتطلبين ان تعيرك حليها) .

فصاحت صيحة الفرح (نعم هذا صحيح . كيف لم يخطر ببالى ؟) وذهبت الى صديقتها فاستعارت عقدا ماسيا جميلا. وكانت أفتن السيدات فى الحفلة الساهرة. وعادت الى بيتها نشوى . وأخذت تخلع ملابسها أمام المرآة ثم ندت منها صرخة مباغتة (لقد فقدت عقد مدام فورستير) وعبثا ماجرى من بحث عنه فى أنحاء باريس (يجب أن نستطيع على نحو ما رد العقد) وسارت مع زوجها من صائغ الى صائغ ، حتى عثرت على عقد يشبه العقد الذى فقدته .

(ما ثمن هذا ؟) (اربعون الف فرنك . ولكنى أبيعه لك مع التضحية بستة وثلاثين ألفا) وتلت ذلك زيارات لهثى الى اصدقائها والى الصيرفيين والمرابين والمقرضين، حتى استطاعا اخيرا لم اشتات الستة وثلاثين ألف فرنك. واعادت السيدة لوازيل العقد ، ثم سخرت نفسها عبدة للوفاء بالدين . ومضت أيام كانت فبها تعمل وتغسل وتدلك الأرض وتلطخ يديها وتطمس جمالها ، وتنزف صحتها وكان زوجها يكدح معها فى موازنة حسابات التجار. وكثيرا ماكان يسهر الليل بطوله لينسخ وثيقة بخمسة سنت للصفحة . وظلا على هذه الحال عشر سنين واستطاعا آخر الأمر الوفاء بكافة التزاماتهما : اصل الدين وارباحه جميعا . وذات يوم من أيام الأحد كانت السيدة لوازيل ، وهى الآن امرأة عجوز مرهقة ، تسير فى (الشانزلزيه) وسرعان مارأت سيدة جميلة

شائفة تسير فى الاتجاه المقابل . انها السيدة فورستير. حيتها السيدة لوازيل (عمت صباحا ياجين) فنظرت اليها السيدة فورستير دون أن تعرف من تكون (الا تعرفينني ياجين انني ماتيلدا لوازيل) .

(اى ماتيلدا المسكينة لكم تغيرت)

(لقد اصابني عنت شديد هذه السنين . وكله من أجلك) .

(من أجلى ؟ كيف ذلك ؟)

(لقد فقدت العقد الذى استعرته منك. لكنى اشتريت عقدا آخر يشبهه تماما . وظللت أفى بثمنه عشر سنوات) فمس ذلك شغاف قلب السيدة فورستير فأخذت اليدين المسكينتين الخشنتين فى يديها (أى ماتيلدا المسكينة لكن عقدى لم يكن أصيلا . لم يكن يساوى الا خمسمائة فرنك على الأكثر) .

— ٤ —

وفى خلال ايام الصداقة الوثيقة بين جوستاف فلوبير وموباسان ، قدم فلوبير لصاحبه نظرية للنجاح الأدبى تتكون من ثلاثة أجزاء : لاحظ ، ولاحظ ثم لاحظ ايضا. فلما مات فلوبير على حين بغتة دخل (جى) تلك الغرفة التى ظل يزورها أيام الأحد طيلة سبع سنين ، وصعد الدرج الى حيث أسجى الرجل الميت ، ولم يكن هذا المراقب يقدس شيئا من الأشياء .

فبينما هم يغسلون الجثة ويعدونها للدفن ، كانت عيناه وعقله فى شغل بجمع التفاصيل ليستخدمها فى

فنه مستقبلا . وبينما هو يسير وراء عربة الموتى الى المدفن لاحظ ان بقرة تنظر من فوق سياج وتخور فى ضوء الشمس لشىء لم تفهمه .

ولاحظ عند القبر كيف أرهق الدفانون غير المهرة وتصبب عرقهم من شد أحبال التابوت وكيف مال التابوت الى ناحية واندك فى الأرض ، ورفض دخول القبر حتى تعاون فى ادخاله رجال أكثر عددا . فقفز قلبه من أثر تلك الرعدة اللهثى للفنان لعدم اتساق الأشياء. فحمد الله على حضوره فى هذه اللحظة ليدرك وحشية الحياة وعدم جدواها . انه حس القصاص ، غريزة طبيعية كأنها حاسة الشم عند كلب الصيد ولكن هناك قلبا كذلك .

وكان أحيانا يلقى بقلمه جانبا ، ينتظر ، ويتلوى من الألم ساعات حتى ينجاب الظلام عن عينيه . وكثيرا ماكان يستنشق (الأثير) ويميل على أبخرته ويحلم بانتهاء آلامه. وكان يشترى قنينات صغيرة من العقاقير المشروبة التى كانت تلتهم كل ما ادخره من مال لعطلة صيفية .

ولكن كان يكمن دائما وراء تأوهات الألم نغمة من الجمال الوثنى (انى أحب السماء كأننى الطير ، والغابات كأننى الذئب ، والصخور كأننى التيتل ، والعشب العميق كما يحب الحصان ان يتمرغ فيه ، والماء الصافى لأسبح فيه كأننى سمكة ، انى لأحس بأنه يتردد على خاطرى شىء مشترك فى كل حيوان ، بعض من كل الغرائز والرغبات المبهمة للمخلوقات الدنيا فأنا أحب الحياة كما تحبها هذه الحيوانات لا كما تحبونها انتم معشر البشر احبها دون اعجاب بها . ودون تدله شعرى فى حبها ، ودون تحليق الى السموات العليا . أحبها حبا عميقا حيوانيا،

حبا زريا ولـكنه مقدس) .

انه يتظاهر انه لايرأف بالانسان ، وتكذبه فى هـــذا قصصه (انى أستطيع ان أشج جمجمة شــاعر لمجرد رؤية ماذا فى داخلها) على ان الآلام التى تعانيهـــــا العجماوات ، تلك الآلام التى تغمض على الفهم ، هى ما يروعه ويوقظ فى روحه كل مشاعر الرقة ، كما قال . أن صيحة الذئب فى الكمين هى صيحته . وان عبقريته التى سمت كثيرا على عبقرية الرجل العادى لترتبط بالاحساسات الجسدية لحياة ادنى فى سلم التطور من حياة الانسان .

لقـــــد كتب ولعله كان فى أبخرة اثيرة ـ عن امرأة فلاحة عجوز بخيلة قررت أن تلقى بكلبهـا فى حفرة . وكان كلبا لايفارق حتى النباح ، تخلصا من اداء ثمانية فرنكات ضريبة للحكومة على الكلب . واتصـلت أول الأمر بأحد العمال لينفذ لها ما أرادت اكنه طلب خمسة بنسات أجرا لهعلىذلك، فبدا لها هذا مبلغا قد بولغ فى تقديره كثيرا ، وعرض خادم زراعى للجيران ان ينجز ذلك لقاء بنسين ونصف بنس ولكن هذا لم يزل أجرا باهظا ولذا ذهبت السيدة بنفسها الى الحفرة والقت بالكلب فيها من عنقه ، فسمعت أول الأمر صوتا لوقوعه فى الأرض . وكان صوتا كئيبا تلتـــه صيحة حادة ، صيحة ولولة تمزق القلوب ، يبعثها حيوان جريح . وأعقبت ذلك صيحات ألم صغيرة كثيرة متتابعة ، ثم ضراعات يائسة ، ضراعات كلب رفع رأسه تجاه فوهة الحفرة . وفى هذه الليلة رأت الكلب فيما يرى النائم فقررت فى الصباح اخراج الكلب من الحفرة . فذهبت الى رجل يعمل فى حفر الصلصال وطلبت مساعدته لكنه

طلب اربعة فرنكات أجرا على اخراج الكلب فذهلت المراة وقالت فى صيحة الغضب (أربعة فرنكات.. ياله من أجر باهظ) انها تستطيع اذن أن تريح ضميرها بأن تلقى بكسرة من الخبز فى الحفرة ، ولكن فى هذه الأثناء كان قد ألقى فى الحفرة مع (بيرو) كلب أكبر منه . فاذا ألقت السيدة بكسرة الخبز استطاعت ان تستبين فى وضوح صوت العراك الرهيب ، ثم صيحات «بيرو» الشاكية ، فقد عضه الكلب الكبير ، وتقنع السيدة بالتخصيص قائلة: «انها لك يابيرو» وكان من الواضح ان «بيرو» لم يصب شيئا . ثم قالت فى نبرة من يبرر سلوكه الذاتى « انى لا استطيع اطعام جميع الكلاب التى ألقيت فى الحفرة».

وفى ضيقها بفكرة اطعام كل هاتيك الكلاب الحية على نفقتها انصرفت . بل لقد اخذت معها بقية الخبز لتأكله وهى قافلة .

وكانت العبرات تصعد الى عينيه حين يتحدث عن العذاب الصامت الذى يلقاه أشقاء روحه . وقد نظم انشودة رقيقة جميلة فى رثاء جثمان حمار قد استلقى للانحلال وناشه الذباب على بعد خطوات ثلاث من الحقول الخضراء التى كان بها يهيم عبثا ، طوال حياة ملئت بالكدح من أجل صاحبه .

وماذا عن الانسان ذلك الحيوان الأصغر؟ ان القدر يسيطر عليه بنفس الوحشية التى يسيطر بها الانسان على الحمير والكلاب فيما يقول .

واستطاع بضربات قليلة من ضربات قلمه اللدن ان يعيد الجهاد الى كل جهاد الفلاحين النرمنديين فى غير غناء . على ان اتصاله بهذه الأرواح المسكينة لم يكن اتصال عقل بعقل ، بل اتصال حس بحس ، ولمس بلمس ،

وشم بشم ، فقد كانت حاسة الشم عنده حادة كأنها حاسة حيوانات الحقول . كان يشم عواطفهم وطرائقهم فى العيش وغرائزهم بل وافكارهم (وكل الحيـــاة فى كتاباته تبدو كأنها مجموعة من الروائح) ومعظمها روائح كريهة .

فلقد كان يتصور الحياة قبيحة (فهو يركز التفـاته فى نقطة صغيرة من الحياة البصرية ، وهى عادة نقطـة كئيبة رثة غير شائقة ، ويأخـــذ هـــذا الجزء الصغير فيضغطه الى ان يعبس او يدمي) .

ولكن أتعس قصصه يومض فى روايتها بريق الشهوة ، انه يحب ذلك الاتصال الـكهربى للحم البشرى . فهو (رينوار(١)) القلم . ولم يكن يرى فكاهة دقيقة مستخفية فى قصص الحياة التى كان عليه أن يرويها ، سواء قصص الفلاحين أو الأمراء ، ولكنه بلغ أدق الحيل الفنية فى وصفه لسلاة الألم والغباء والبذاءة ، وكانت قصصـــه القصـــيرة احيـــاء لقصص لافونتين الخرافية وقصص بوكاشيو الفكهة وقد كانت (القصة الاباحيـــة) دائما تستثير الشرارة السريعة للعقل اللاتينى .

وكان موباسان أستاذ الأقصوصة ، لـكن طريقته فى سردها هى طريقة سرد الملاحم . ولقد كتب كثيرا من القصص كانت فى الواقع أقاصيص وكانت كل أقاصيصه قصصـــا طويلة . وأشخاصه جميعا لاينعمون براحة دينية أو روحية . ومع ذلك فهو شاعر متنكر فى زى ساخر قاسى الفؤاد . فتشاؤمه ودقته العلمية واسلوبه المشرق البسيط الذى ينحو فيه منحى الأدباء الأقدمين

---

(١) رسام فرنسى من أصحاب مذهب التأثير . (المترجم)

انما هو مستعار من مظاهر جيل الشبان الذين يعيشون حوله ، وكان موباسان يشعر كما يشعر بقية جيله أن الله قد خلقه لكنه يرفض ساخرا ان يؤمن بهذه الأبوة.

ولم يكن لديه مبدأ فلسفى يعيش عليه (ان هناك من الحقائق ما يساوى الناس عدا . فـــكل منا يكون لنفسه صورة خادعة للعالم . وهو خداع شعرى أو عاطفى أو بهيج أو مقبض أو قذر أو كئيب حسبما تكون طبيعته..كخداع الجمال وهو تقليد انسانى.. وخداع الدمامة وهو فكرة متغيرة .. وخداع النـــذالة الذى يستهوى الـــكثيرين . وكبار الفنانين هم أولئك الذين يسعهم حمل الانسانية على قبول انخداعاتهم الخاصة).

وكان مجتمع فوبورج سانت اونورى الذى يستضيفه قد ضاق به ، فانه جلف ريفى شهوانى رغم كل شهرته وتأنقه . وعيناه لا تخصان شيئا بنظراتهما انهما ليستا عينى رجل طبيعى . فانهما عينان لا تنبئان بروح .

وهذا جى دى موباسان الذى اصبح أستاذ الضحك بلا مسرة ينظر فى المرآة الى عينيه فيتبلبل هو أيضا . وكان وجهه يزداد نحولا كأنما العينــــــان تأكلان اللحم بمقتضى قانون مستمد من طبيعتهما . وكان يحلق ذقنه ذات صباح ، فأتى ضباب بينه وبين المرآة ، فوضع يده على رأسه المصدع ، واخذ يدرك السبب فى عمق بصره بذرات الأشياء ؟

لم يحدس ذلك أحد ؟ ان السبب هو أن عقله يتحلل تدريجا الى ذرات الأشياء . فكل فكرة من أفكاره كانت تذوب فى قطرات من الادراك ، وكل ذرة من أفكاره ترى كل ذرة زميلة فى صورة من اللمعان المعاقى قبل الانحلال الاخير .

وكان يتسلق سلم الفن ، من عبقرية الى عبقرية أعظم ، الى الطفولة ، والى الانسان البدائى وما قبله . وكان يهبط سلم التطور نازلا الى انسان ما قبل التاريخ ثم نصف الانسان .. وما دون ذلك .

ولم يكن يفهم لماذا يموت بمرض تناسلى أصابه فى لحظة غامضة مجهولة أثناء مغامرة مع خيال . لم يفهم ذلك وأفزعته فكرة الموت . انى أومن بأن كل انسان يموت يطويه العدم قطعا . ان الانسان اذا مزح مع الحياة مرة سلكه الناس فى عداد المازحين الماجنين أبد الدهر . ان هؤلاء الملايين من قراء كتبه لم يدركوا ان ما يظهر فى قصصه من أوهام وأشباح ، انما يرجع الى ساعات سرية من حياته الخاصة .

لقد طمر نفسه بكتب الطب ، وقابل الأطباء فى كل مكان ، يسألهم عن الأمراض، فاستنتج العقلاء انه يجمع معلومات يفيد منها فى كتاب جديد ، فى سخرية بالأطباء، ودراسة للشذوذ . فلما قال لأضيافه فى هدوء ساعة العشاء (انى مهتم بالجنون ، سأصف العملية التى ينحدر فيها رجل الى الجنون تدريجا . ترى هل وعوا ما يقول ؟ وهل درت عشيقاته انه انما كان يختلف اليهن لأنه يخشى النوم وحيدا ؟ لقد كان مصابا بداء الكشف والتفرج على ذاته ، وكان أحيانا يرى نفسه فى وضوح كأنه ينظر فى المرآة . ودخل حجراته بعد الظهر فى أحد الأيام فوجد نفسه جالسا على مقعد يقرأ كتابا كان قد نحاه جانبا حين برح الغرفة منذ لحظة . وكتب قصة (لاهورلا) عن رجل يتردد عليه طيفه .

وكان مرة يكتب على منضدة فجلس طيفه قبالته فى سكون وأخذ يملى عليه مايكتب كلمة كلمة ، فشحب

وجهه وصرخ، وحرك يده حركات يائسة ليطرد الطيف. وكانت قشعريرة عوالم الموتى تسرى فى دمه . وهو الآن يخشى قدوم الشتاء اكثر مما كان يفعل فى اى وقت مضى . فيجلس مرتعشا الى جانب النار وحين يكون الجو دافئا كان يوقد النار فى جميع الغرف .

واشترى قارب نزهة ، وابحرت شمس البحر المتوسط، وجال فى رمال أفريقيا . لـــكنه فى الحر كما فى البرد ، كان يكتب ملاحظاته وبدنه يقشعر . كان يفكر فى الذباب الذى يعيش اياما قليلة ، والناس الذين يحيون أعواما قليلة والعوالم التى تعيش قرونا قليـــلة . فما هو الفرق بين الدودة والكون ؟ فرق بضعة أيام لا أكثر.. (انى ارى الموت الآن قد اقترب منى بحيث صرت بحاجة الى مد ذراعى لأدفعه عنى . انى أراه فى كل مكان وان الحشرات التى هشمت فى الطريق ، واوراق الشجر المتساقطة ، والشعرات الشيباء فى رأس صديق لتمزق قلبى كل ممزق وتصيح بى (تدبر) انها لتفسد على كل ما أفعل وارى وأطعم وأشرب واحب ـ ضـــوء القمر اللامع ومشرق الشمس ومنفسح المحيط ، والأنهـــار النبيلة ، ونسيم أمسيات الصيف الذى يطيب تنفسه).

وهو الآن يصغى بحاسة سابعة فتوافيه مع أنســـام البحر المتوسط أنباء مزعجة فان القدر على حين بغتة أصاب أخاه الأصغر هارفى القوى البنية الجاد البعيـــد عن الأوهام بضربة قاضية فى عقله . كما تضرب الشمس مستحما نائما .

فلما اصطحبه اقاربه الى مصحة العقل أشـــار الى (جى) صارخا (انك انت المجنون انى أقول لك انك مجنون العائلة) وسرعان ماكان هارفى مستلقيا على فراش

الموت هادئا غير مكترث ، ولكنه بذل جهدا اخيرا بان نادى أخاه ، كما كان من عادته ان يفعل حين كانا صبيين : (تعال نلعب فى الحديقة ياجى) وما كاد جى يجفف دمعه حتى كان أخوه قد فارق الحياة .

والآن شاءت سخرية الحياة الحزينة ان تكون هذه الفترة هى فترة خلقه الأدبى الأعظم ، وكأنما قد أخطأ الطريق بغتة فدلف الى حظيرة آلهه لاتراها العين. ذلك بأن السموم القاتلة التى تجرى فى دمه كانت تستخرج منه أينع أزهار عبقريته قبل ان تحطمه. فقد سطر قلمه قصصا عن المناطق الاستوائية الهادئة المتوهجة ، وعن الحب الانسانى الجميل وعن رحلات فى البحر المتوسط الذى كانت أمواجه تذوب فى ضوء القمر المبدع فتغدو نجوما وكواكب .

ونما المه بنمو جماله ، فمناضد المكتبة والمقاعد والمصابيح صارت حيوانات تسعى دخولا الى الغرفة وانصرافا عنها ، ونزولا على الدرج وسيرا فى الطريق ان ملايين وبلايين الجراثيم تسرى فى دمه ، كأنها فى استعراض. فاذا وضع كعبه على الأرض قفز الى أعلى فى الحال ، وكان خادمه يسير وراءه فى بطء خلال الحقول ذات مرة، فرأيا صليبا عليه صورة المسيح فقال (أى فرانسوا لقد كانت سنة ثلاثا وثلاثين حين صلب. وانا الآن أقارب الواحدة والأربعين) .

لقد صار (الرسام الأكبر للعبوس البشرى) .. وهو يرسم وليس به حب ولا كراهة ولا غضب ولا عطف ، فهو يعرض علينا كل الأرواح الغريبة العجيبة وكل منكودى الطالع عرضا واضحا بحيث نراهم بأعيننا نحن، فنجدهم أحق من فى الحقيقة نفسها . انه يبعث الى

الحياة دون أن يصدر حكما .. وانه ليعــدل الطبيعة فى حياده وعدم اكتراثه . وحدث بعد ساعات قليلة على ليلة رأس السنة ان وجه موباسان غداره الى رأســه وشد زنادها ، فلما وجدها خاوية شق حلقــه بموسى ووقف يحملق فى ابتسامة غير آبهة . فاذا هرع خادمه الى الغرفة صائحا قال له فى هدوء (لقد رأيت ما فعلت بنفسى يافرانسوا . لقد شققت حلقى انها مسألة جنون مطبق) أن الرجل الطبيعى انما قد قام بتجربة نهائية على الحيوان البشرى ، وهو الآن على أستعداد للتخلى عن دروسه، لقد ضمد الأطباء جراحه وأوقفوا تدفق الدم.

فلما أقبل الصباح كأنه كلب الصيد يعدو فى السماء ، اقتادوه الى بحره الحبيب لعل منظر قاربه الصــديق الجميل (بيل آمى) يرده الى صوابه . فأطال النظر الى القارب بعض الوقت ، وتحركت شفتاه كأنه الطفل الذى لم يتعلم الــكلام بعد . فلم يقل شيئا ، ثم انصرف عنه. ان شيئا مما حوله لم يعد يعنيه على الاطلاق .

انه ليطفو فى دعة مع الحشائش والصفصــاف على صفحة ذاك الغدير الرهيب الذى لايزعجه مد ولا جزر.

إميـــل زولا

(١٨٤٠ – ١٩٠٢)

– ١ –

في عام ١٨٧٤ كان اربعة من الكتاب يجتمعون للعشاء في قهوة (ريش) بباريس مرة في الشهر، وكان هؤلاء الأربعة هم : زولا ، وفلوبير ، وترجنيف ، ودوديه ، وكان هـــذا الاجتماع الشهرى – أو عشاء الـــكتاب المبغضين كما كان يدعى – قد صار موسما فتريا لتبادل الأفكار العظيمة ، والحديث الشهى ، والطعام الأشهى.

يكتب زولا فى ذلك « كنا جميعا من أهل البطنة ، أما انا فكنت بحاجة الى البطنة . اذ كان على أن أملأ معدة قد طال عليها الخواء » . وكانوا يجلسون الى المائدة فى السابعة ، ويغادرون المطعم فى الثانيـــة عشرة ، لا ليذهبوا الى منازلهم . فعليهم أولا ان يهيموا فىالطرقات حتى الساعة الثانية ، أو الثالثة أو الرابعة صـــباحا يتذاكرون خططهم ، ويتحدثون عن قصصهم التالية ، ويمزقون العالم ليعيدوا تأليفه كما تهوى قلوبهم .

وينصرف ترجنيف أول منصرف ، ويليه دوديه ثم يسير زولا ليصحب الأب فلوبير الى منزل الأخـــير فى شارع موريلو ، فاذا بلغا الباب قبل فلوبير زولا من كلا خديه ، وافترق الصاحبان بعد اذ يقول الأستاذ كلمة لحواريه « كل شىء قد قيل أمامنا يابنى ، ولم يبق لنا

الا ان نردد ما قيلَ . وكلّ ما علينا ان نقوله فى الفاظ اجمل » .

وعاد زولا لا ليردد ما قيل فى الفاظ أجمل ، بل ليقول أشياء جديدة فى ألفاظ قدر لها أن تتجاوب فى كل بقاع العالم .

— ٢ —

وكلمة (زولا) معناها كتلة من الأرض ، وكان هـذا الاسم يصدق على اميل ، فهو ابن أمنا الأرض ، يحب كل مخلوق عادى خرج من صميمها .

وكان انسانا تجرى فى عروقه دماء مختلطة .. تحوى قليلا من كل ماهو طيب ، فجـدته اغريقيـة ، وأمه فرنسية ، وابوه ايطالى .

كان فرانسسكو زولا مهندسا مدنيا لديه دائما الأفكار الصالحة ، يؤيدها رجال غير صالحين . وقد تمكن آخر الأمر من استشراف النجاح حين عهد اليه حكام اكس بحفر قناة تجلب الماء من الجبال الى المدينة ، لكنه لم يستطع قط أن يجاوز الاستشراف ، ومات عام ١٨٤٧ قبل أن يبدأ العمل فى حفر القناة تاركا السيـدة زولا بابنها اميل ، وكان فى السابعة ، وليس لديها شىء تعوله به غير حلم خائب .

فأمضى خمس سنوات فى تعلم متقطع ، يتخللها كثير من رحلات الاسترخاء الى شاطىء التورز ثم بعث بالآفاق الدميم الصغير الى تعليم صحيح فى كلية اكس .

وكان مقامه بالكلية عذابا طويلا متصلا فهو متحفظ

يصعب عليه كسب الأصدقاء وبه لثغة تربكه .. فاذا ساله رفاق الدرس ما اسمه تلعثم وهو يجيب (ثولا) وأصبح (ثولا) اسما يطلق عليه تهكما ، وسوط عذاب يصب على ذلك المتلعثم المرتبك الحساس .

لكنه لم يتلق عقابه مستسلما فهو محارب مكافح . واذا وقف فى وجه الدهماء كال لهم صاعا بصاع . ولقد هاجمه ذات صباح تلاميذ ملأوا فناء المدرســـة فوقف مقهورا يلهث ، يحاول بأقصى الجهد أن يوقف دمعه . فذهب اليه صبى كان قـــد بلغ الفناء لتوه وقال له : يؤسفنى ما حدث .

حسنا : انى استطيع الذود عن نفسى .

فمـد اليه ذلك القادم الجديد يده وقال فى دفعة : اريد لاتخذ منك صديقا .

ـ وكذلك أريد .

هذا ما قال زولا وهو يصافح اليد التى امتدت اليه. وبالمناسبة ما اسمك ؟ ..

« سيزان . بول سيزان » . وهكذا بدأت الصحبة التى استمرت سنوات طويلة بين ثائرين من أولى العزم يواجهان العالم .

ـ ٣ ـ

كان زولا الصغير (وهو فى كلية اكس) كاتبا مجيدا. فهو فى عامه الثالث عشر يكتب قصة تمثيلية ذات ثلاثة فصول ـ ولكنه تلميذ متخلف ـ فاذا ترك كلية اكس الى

مدرسة المعلمين العليا بباريس لم يكن قد تحسنت حاله فهو ينقطع عن الدراسة ، ويرفض أن يردد ما حفظ متى طلب منه ذلك ، ويقف وقته كله على قرض الشعر ومطالعة رابليه ، ومنتانى ، وهيجو ، وموسيه ، ونال فى الامتحان النهائى صفرا فى الأدب .

وجاء رسوبه ضربة أليمة لأمه فهى قد نظفت أرض المنازل وأزالت أقذارها وغسلت ملابس الناس لتنفق عليه فى تعليمه بالكلية ، لقد أرادت أن تجعل منه مهندسا كأبيه ، والآن تتحطم آمالها وتتهشم فان القدر يسوق اميل الى أن يكون من الكتبة ، أو يسوقه لا قدر الله الى حياة الأديب الجدبة . وكان اميل نفسه يائسا ، فقد كتب الى أحد أصدقائه « فى الأسبوع الماضى وقعت فى براثن حزن حزين ، فلقد بلغت العشرين دون أن اتعلم مهنة ما ، فانى حتى الآن لازلت أهيم فى الأحلام ، وأسير على رمال واهية ، ومن يدرى متى أقع ؟ » .

وشاء حسن الحظ أن ينقذه من الوقوع الفجائى صديق قديم لوالده ، وكان يدعى لبوت . فقد عينه كاتبا فى مرفأ نابليون . وهو عمل يكاد يفى بغذاء جسمه لكنه لايقدم شيئا لغذاء روحه . لم يكن فى المرفأ شىء من المرح « فظللت أقيم أشهرا فى هذه الحظيرة اللعينة . والله انى لأشعر بأثر ذلك فى ظهرى ورجلى وأطرافى الأخرى جميعا . وانى أجد لمكتبى رائحة كريهة . انى لأتقزز ـ ولسوف أقطع ما بينى وبين ذلك المخزن الخبيث » .

وقطع مابينهما بعد أشهر قليلة ، ثم انزوى عامين فى حمأة الشقاء والعوز والجوع والمرارة والاسمال واليأس ، والأحلام ورسم الخطط لايجاد عهد للانسانية جديد ،

وخلق انجيل جديد يضيق مسافة الخلف ما بين السماء والأرض.. ليته يستطيع صنع هـــذا الانجيل . ليته يستطيع تسكين هذا الألم المبرح فى معدته !..

ثم يلتئم شمله بسيزان ، وكان قد تبعه الى باريس ويسكنان بعض الغرف معا ويحلمان معا ، ويقتلهمـــا الجوع معا . النبى الجديد للبيـــان ، والنبى الجديد للتصوير ، فى عصر لايحفل فيه أحد بالأنبياء ، فكان زولا يكتب القصائد وسيزان يلون الصور ، ولا يجد أيهما جمهورا يقدر بضاعته ، ولو أردنا الحق لقلنا ان أحدا منهما لم يكن يستحق التفات الجمهور اليه حتى ذلك الوقت . فان لهيب الالهام لم يمسس بعد ذلك الوقود الذى صنعته آلامهما .

(لكنى سأكتب حتما ذلك الأثر العظيم يوما ما . والأيام بيننا) .

وفى هذه الأثناء كان يذوق مزيدا من المرارة ومزيدا من اليأس ، ومزيدا من العوز ، وبلغ الجوع منه مبلغه فى شتاء عام ١٨٦١ ـ ٦٢ فأقام الفخاخ على سقف عليته يتصيد بها العصافير التى جعل يشويها على شمعة ثبتها بطرف قضيب ، وكان يغمى عليه أحيانا من الجوع .

وكانت نجاته فى هذه المرة أيضا على يد صديق لأبيه. فعين هذه المرة عاملا للف الكتب وحزمها فى دار للنشر يملكها هاشيت وشركاؤه . وظل شهورا عدة يلف الكتب فى قسم الشحن البحرى ، ويكتب اذا فرغ تعليقات على هذه الـكتب ، يتسلى بذلك ويستمتع .

وذات يوم بغته صاحب الدار وهو يمارس هوايتـــه العابثة . فقرأ التعقيب وقال « قد تكون يازولا متراخيا

فى الشحن ، لـكنك فى النسخ أقل سوءا . فلنجربك فى قسم الاعلان » .

وكانت هذه الترقية نعمة ساقها الله الى زولا. لقد وجد آخر الأمر فرصة لـكسب عيشه بقلمه .

فاذا شحذ قلمه ، جعل يستعمله مثابرا فى النهـار والليل ، فلا يفرغ من عمله الرتيب فى المكتب حتى يذهب الى المنزل ـ وكان يساكن أمه فيه وقتئذ ، فيصيب عشاء وافرا ثم يجلس الى كتابة غير رتيبة .

وكان قد انصرف عن الشعر الى القصة « لقد كانت ملهمة شعرى لا غناء فيها فلأكن ناثرا منذ اليوم » .

وأخذ يعرض قصصه القصيرة ، فسعد بأن رأى بعضها منشورا فى الجرائد المحلية . ثم جمع قدرا من هـــذه القصص وعرضها ، لا على ناشره بل على ناشر آخر أقل منه تزمتا ، هو (هتزل ولـكروا) .

وكنا فى أوائل الربيع من عام ١٨٦٤ ، حين نظر اليه (لـكروا) من خلف مكتبه . فرأى صبيا بدينا مرتبكا شعره منفوش وأنفه أفطس كأنه يتحدى .

« سيدى ، أتتفضل بقراءة هذه القصص ، ولو قصة واحدة منها فقط . أرجوك ان تقرأ منها اى واحـدة شئت . فسترى لتوك أنى صاحب كفاية » .

فطرب (لـكروا) لما سمع من توكيد الصبى ، وان كان قـــد سمعه فى نغم بالغ التهيب . فوعـــد زولا بقراءة المخطوط . وانتظر زولا عدة أسابيع بدت له فى قلقه كأنها بضع سنوات ، ثم قبل الناشرون المخطوط .

قال زولا فى بهجة « لقد كانت المعركة قصيرة ، انى

الآن على عتبة الحياة ، فليس على الا ان اسير قدما من هذه النقطة وان اتابع السير » . وبعد نباهة الذكر، جاء الحب والخيال .

- ٤ -

فقد استأجر زولا شقة فى أحد الشوارع قريبا من مدرسة الطب على الشاطىء الأيسر لنهر السين ، ورأى (الكسندرينامسلى) ابنة صاحب الحجرات التى استأجرها ذات مساء ، وكانت الفتاة سمراء طويلة تأخذ بالأبصار ، ذات عينين كأنهما عينا طفل فى صورة اسبانية قديمة . كانت هذه الفتاة تبكى وتحاول أن تتجنبه ، وعرف زولا أمرها شيئا فشيئا . فهى قد كرست نفسها لعاشقها ، وكان طالب طب من الأقاليم ، وقد ذهب الحبيب الى بلدته وهجرها . فأخذها زولا الى منزله واتخذها خليلة .

وما لبث أن تلقفها قلبه فاتخذها حليلة . وكانت معاشرة تساوت فيها رقة الزوج ورقة الزوجة ، ولم يكد يكون بينهما أى تشابه من حيث الجسم (فزولا دميم كأنه الكابوس . والكسندرينا ، حلوة كأنها الحلم) ولئن عبد زولا جمال جسمها فقد عبدت الكسندرينا جمال روحه .

ولسوف تثبت الكسندرينا ايضا - كما سنرى - انها صاحبة روح جميل .

لقد صار زولا صاحب بيت مستقر وشهرة تنمو وتكبر فى عمله . وكان معنيا بالأدب الواقعى من طراز قصة (مدام بوفارى) لفلوبير ، وتمثيليات من طراز

هنريت ماريشال لـكونكور تلك الدراسات العلمية فى الحب ، التى اصابتها عيون نفـــذت الى اعمق أسرار الحياة . فأراد ان يكون كذلك عينا بصيرة تكشف عن امراض المجتمع كى يعالج جراحه . فـــكتب عددا من القصص الواقعية ، وهو يفضل أن يسميها بالطبيعية. وقد قرئت القصص على نطاق واسع ، واهين زولا على نطاق واسع كذلك « لقد سقطت من عين أهل الوقار».

وظل الجمهور يشتمه ويقرأه ، ويصب فى جيبه المال. فقد صار فى دوائر المثقفين غير الوقورين ، علما ذائع الشهرة الى حد ما ، حتى لكأنه الأسد كما يقولون ، او بالأحرى : كأنه الدب ، بوجهه هذا الأشعث وبطنه الضخمة ، وذوقه الخشن غير المصقول .

وكتب سلسلة مقالات فى مدح (سيزان) وغيره من الفنانين المحدثين المزدرين وان كان يعترف بأنه لايحسن تمييز اللون الأسود من اللون الأبيض .

وقد أثار حول آرائه المجنونة عاصفة من الخصومات. ويستمرىء جنونه وشهرته . فكل هذا يعبد له الطريق الى مشروعه الضخم ، وهو تأليف الانجيل الجديد الذى كان يرسم خطته طيلة سنوات عدة ، والذى يرســـم صورة الانسانية كاملة غير مزدانة ، كما تتضح من دراسة الأجيال المتعاقبة من أسرة واحدة . وانها لملحمة من ملاحم الاتهام ستكون فى الوقت ذاته انجيـــلا للأمل . وحين يكتب زولا ملحمة الاتهام هذه فى عشرة مجلدات. يصبح على حين فجأة تلميذا وناقدا ومعلما لبنى جنسه.

وكان قبل ان يبدأ كتابة كل قصة ، يأخذ فى دراسة شاملة كاملة للمشاهد والأشخاص والأماكن واللغـــة

والآمال والمخاوف والعقائد لتلك الذرات الانسانية التى يتركب منها بناء القصة . فكان يقرأ كتبا فى الموضوع ويزور الأماكن ويحادث النـــــاس ويرقب تصرفاتهم وأصواتهم ولهجتهم الدارجة ، ويثبت مارأى فكان يجمع لكل قصة مذكرات تملأ مجلدات متتابعة ؛ ثم يأخذ هذه الكتلة المستعصية من المعلومات ويعيد قراءتها ويسبكها ويصوغها فى ذهنه الى فكرة وخطة ، ويتابع كل شىء فى تريث ونظام وصبر . ان الكتابة عبء ثقيل على .

وأخيرا بعد كد يظل عدة أشهر ، وربما عدة سنوات، يولد أثر من آثار الأدب .

ولنلق نظرة عجلى على أحد هــــذه الآثار الفنيـــــة (لاسوموار) وكانت لهبا يندلع من كمية من الوقود ضخمة. وقد أسهب زولا فى وصف أعداد هذه القصة وكتابتها. فهذه القصــــــة صورة لما يلقى الفقراء من آلام ، وانها لصورة مخيفة . كذلك يقول زولا فى مذكراته « وهى قصة تفصح هى عن مغزاها . وتدعى بطلة القصـــة : جرفيز ما كادت وهى امراة من الشعب .. هى مثل من البؤساء الذين تنكرت لهم أمنا الأرض . وعاملتهم بما ينتظر المرء من زوج أبيه ، وان جرفيز لم تكد تعدو العشرين حين ولدت طفلين (كلود ، واتين) وكلاهما جاء من علاقتها غير المشروعة (بلانتيير) . فقد ألقت بنفسها فى حماية (لنتيير) وهى بعد فى سن الثالثة عشرة لتنجو من قسوة ابويها . وكان لنتيير فى أول امره رحيما بها ، غير انه الآن يهملها ، فهو يقضى الليل بطوله فى السهر خارج المنزل ، ومتى عاد مع الصبح لم يكن يستطيع النهوض على قدميه ، وسل عن ذلك حانته فى الحى (لاسوموار) وامراة أخرى هى (اديل) ولا تزال جرفيز

ذات جاذبية وملاحة ، غير ان بها عيبا جسمانيا واحدا هو ظلع يسير اذا مشت . وكان هذا الظلع يزيد وضوحا حين تجهدها كثرة العمل بوجه خاص ، وانها هـذه الأيام لفى غاية التعب حقا .

وكانت ذات صباح تغسل ملابس الأسرة فى مغسل عام . فيهرع ولداها اليها ليخبراها ان لنتيير قـد هجرها وأقبل على (اديل) ومضى بكل ما تملك جرفيز واضيفت الى انباء الأطفال المثيرة ، سخرية من فرجينى أخت (اديل) وكانت امرأة قوية البنيـة جاءت الى المغسل تشفيا بشهود ما أصاب غريمة (اديل) . واذا كانت جرفيز أصغر حجما واهش قوة ممن تعـيرها وتشمت بها، فقد قفزت فوقها وركلتها وعضتها وضربتها حتى توسلت فرجينى بطلب الرحمة « لـكنى لن أغفر لك هذا قط » بذلك غمغمت فرجينى وهى تنسل من المغسل .

وظلت جرفيز بعض الوقت تعول نفسـها وولديها بأجر ما تغسل من ملابس الناس . وكان من معارفهـا (كوبو) عامل القصدير ، وهو شـاب يعرف قصتـها التعسة مع لنتيير ، ويطلب اليها (كوبو) ان تـكون له خليلة . ولكنها ترفض المرة بعد المرة . واخيرا يطلب يدها فتقبل .

وتثور العواصف والاتهامات من أسرة كوبو. ويطمئن الزوجان فترة سعيدة شيئا . فان كوبو لعامل مجد ، وجرفيز غسالة ممتازة. ويتمكن الزوجان معا من تهيئة منزل طيب للطفلين ولطفلة ثالثة هى (نانا) التى ولدت بعد زواجهما بأربعة أعوام .

وما هى الا فترة قصيرة اعتكفتها مع (نانا) ثم تعود

الى العمل فى المغسل . وكانت لا تحلم الا بأن تكون صاحبة مغسل ، وان الأمور ليست بالغة السوء آخر الأمر ، وخاصة اذا اشتغلت فى جد ، وحافظت على أمانتها وتدبر مشروعاتها . لكن مشروعاتها أصيبت يوما بصدمة مفاجئة . ذلك بأن زوجها قد هوى من سقف يصلحه ، فرفضت ارساله الى المستشفى وأصرت على العناية به فى المنزل . فكانت نقاهة طويلة ، خرج منها كوبو وقد صار يختلف عن الرجل القديم . فالسقوط لم يهشم جسمه وحده ، بل هشم روحه كذلك . فلم يعد طموح ولا خطة ولا أمل . وانما هى عاطفة مسيطرة هى الحانة .

وكان القدر يحاور أسرة كوبو ، كما يحاور القط الجرذ . فهى تطعم لقمة سائغة من السعادة ثم تخوض لجة من الشقاء ، ثم توعد بالسعادة وغدا جديدا كذوبا.

فهذا رجل كان يحب جرفيز مستخفيا هو (كونجى) الحداد ذو اللحية الذهبية ، والقلب الذهبي ، وقد ظهر عليها فحملها على ان تقبل منه قرضا مقداره خمسمائة من الفرنكات ، وهذا مبلغ يكفيها ان تفتتح مغسلها وتحقق حلمها .

لكن القدر كان يتربص بها فى الربيع القادم كما يتربص النمر. فقد غدت فرجينى أخت (اديل) جارة الأسرة كوبو ، وهى لم تنس قط تلك الوكزة من جرفيز . فادعت صداقة جرفيز واخبرتها ان لنتيير قد عاد الى قواعده (لقد هجر اديل . وهو على حبك مقيم) .

وريعت جرفيز لذلك ، لكن مضت فترة من الزمن دون ان يبذل عشيقها السابق جهدا للقائها ، بل لقد كان يلتمس صداقة زوجها كوبو . فتلازم الرجلان

فى الحانة ، وأخيرا دعا لنتيير نفسه الى مساكنتهم فى منزلهم .

وكان من أثر الرجلين المنحلين فى جرفيز ، انها أخذت فى الانحلال البطىء . كان عليها أن تعولهما جميعا كما تعول أطفالها . فجاهدت زمنا لتنهض بعبئها الباهظ.. ثم ناءت به . فتشاجرت مع زوجها وأهملت عملها . والتمست السلوى والنسيان بين ذراعى لنتيير . ثم كانت الصدمة الأخيرة اذ فقدت لنتيير ومغسلها وورثتهما جميعا فرجينى .

وهى الآن مع زوجها غارقة فى دوامة الحانة ، فينتكس كوبو من سكرة الى سكرة حتى يزهق روحه كابوس الكحول . وأما (نانا) فهى الآن فتاة كاملة النضج ، قد هجرت المنزل لتغدو من رائدات الشارع ، وتحاول جرفيز أيضا أن ترتاد الشوارع . ولكن من ذا يطلبها.. جوع وشراب ويأس ، ثم اشراف على الهوة .

ويبذل الحداد (كونجى) محاولة أخيرة لانقاذها ؛ ولكن سبق السيف العذل ، فان حانة العالم التى تسكر الفقراء بجام اليأس المرير... قد تقاضت أتاوتها ..

— ٥ —

ومن مفارقات القدر ان القصص التى كتبها زولا عن الفقراء قد جعلته غاية فى الثراء وفى السمنة والاكتئاب. فأنت مهما تعمل ، فان الحياة آخذة بخناقك . فحين الفقر تكاد تموت من الجوع ، وحين الغنى تكاد تموت من البطنة . وكان زولا عصبى المزاج منذ طفولته ، فاعتقد انه مصاب بكل مرض معروف . وهذا يرجع

فيه ﻗال الى ما أصابه فى باكورة حيــاته من حرمان ، وما تلا ذلك من اكتظاظ . والواقع ان له صحةكصحة الحصان . وانما الذى يقض مضجعه فى حقيقــة الأمر ليس ضعف صحته بل حرمانه الولد فهو كان يحس انه نصف انسان فحسب . لمــاذا كتبت عليه زوجة لاتستطيع ان تنهض بوظيفة الأمومة ؟ ان هنا بين خدمه امرأة أخرى (جيان روزيرو) ، هى وصيفته الخاصة ، وهى طويلة ، صحيحة الجسم عسلية العينين ، حسنة الهيئة ، غضة ندية . فما أطيبها من أم لبنية .

ولم لا ؟ فانها لاتكاد تبلغ العشرين . أما هو فشيخ فى الخمسين أشيب مستدير الجسم كأنه راس الخنزير. لكنه اذا لزم نظاما معينا فى الطعام استطاع أن ينقص عمره ثلاثين عاما ، ومن وزنه ثلاثين رطلا ، أما شعره الأشيب فانما يزيده جلالا فى عينى جيان .

فيلزم فى طعــامه التحديد الصارم أشهرا عدة .. فيمتنع عن الدهنيات والفطائر والسوائل حين الوجبات. وعاد الشيخ الى شبابه . وكأنه فوست قــد تراءى فى شكله ، واتخذ لجيان شقة خاصة وما كان أبلغ سروره بأن ولد له طفلان .

ولكن اين السرور من زوجته الكسندرينا . انها تحتج وتثور وتهدد بالانفصال . واخيرا تستسلم لما قسم لها، فتصير المرأة الأولى فى بيته . والمرأة الثانية فى قلبه . بل لقد تجاوزت ذلك ، واذا كان المثل الفرنسي يقول : (النبالة تفرض التزاماتها) فان الأمر كان عكس ذلك فى أمر الكسندرينا فان (الالتزامات قد فرضت النبالة) فهى فى تسامحها الذى انبته حزنها تتصل بأم ابنـــاء زوجها ، وتسجل الطفلين ولدين شرعيين لزولا، وتعنى

بهما شخصيا مدى حياتها .

وشاء زولا أن يظهر عرفانه بجميل الكسندرينا ، فأهدى اليها كتابه التالى (الدكتور باسكال) وكتب عليه « الى زوجتى العزيزة ، أهدى هذا الكتاب الذى هو لباب تواليفى وخاتمتها » . ولكنه يكتب على احدى نسخ الكتاب اهداء مختلفا (اهداء الى حبيبتى جيان التى أهدتنى زهرة شبابها الرائعة ، والتى منحتنى دنيس وجاكوب. ولدى العزيزين اللذين الفت لهما هذا الكتاب، حتى يعرفا مبلغ عبادتى لأمهما) . وظل زولا حتى آخر يوم من حياته محافظا على علاقة هاتين : اخلاصه (لزوجتى العزيزة) وعبادته (لحبيبتى جيان) .

— ٦ —

فاذا اتم زولا قصصه العشر ، (ملحمة الكفاح فى سبيل الحق) لم يبق عليه الا الراحة تحت اكاليل الغار. لكن جهاده الحق قد بدأ من هناك ،وكان الجهاد يتصل بمحاكمة الكابتن دريفوس .

ولم يكن زولا يهتم بمحاكمة دريفوس (فما هو غير يهودى آخر متهم بخيانة الوطن) ولم يكن زولا يأبه لليهود قط . بل كان يبغضهم فى شبابه أشد البغض . ولكن لا تتقدم المحاكمة حتى يحس فى اجراءاتها معنى عجيبا . فهو قد مرن على دقة الملاحظة حين يعد قصصه. فخامره الشك فى ان تكون التهم الموجهة الى دريفوس ملفقة على رجل شريف فشرع فى درس القضية فاستيقن ماكان يرتاب فيه . لقد ارتكب الظلم الشنيع فى بلاده ويقتضيه واجبه المقدس بوصفه مواطنا يحب بلاده ان

يمحو الظلم . فالذى يحاكم أمام العالم ليس دريفوس بل فرنسا . فوهب زولا نفسه قلبا وروحا لتطهير اسم دريفوس لكى يطهر اسم فرنسا .

وكان دريفوس يذوى ويضمحل فى السجن الانفرادى على جزيرة الشيطان (انى برىء) كذلك كان يصيح ويكرر صياحه . وهو يؤمن فى يأسه انه لم يسمع صوته غير الرياح والأمواج .

ولكن زولا قد سمعه واجبر العالم بأسره على ان يسمعه ، فكتب رسالة ونشرها وجعل عنوانها (انى أتهم) وحلل القضية كلها بعناية فى هذه الرسالة ، ولم يقف فى هذه الرسالة عند اثبات براءة دريفوس ولكنه وجه اتهامه الى الرجال المجرمين والنظم المجرمة « لم يبدأ هذا الأمر الا اليوم . فقد انقسم الناس الآن الى معسكرين يضم احدهما المجرمين الذين لايحبون ان يلقى على الموضوع أى ضوء . ويضم الجانب الآخر محبى العدالة الذين يضحون بأرواحهم فى سبيلها . وليس لدى غير عاطفة واحدة هى حبى للنور والوضوح . وليس احتجاجى الحار الملتهب غير صرخة من صرخات الروح . فليجرؤ الجناة على الدفع بى الى المحاكم فهذا من شأنه ان يعجل بتفجير قوة الحق والعدل » .

وقد حدث الانفجار فعلا ، وان لم يكن انفجار حق او عدل ، بل كان انفجار بغض لزولا وعنف به « فليسقط زولا ، يسقط الخائن ، اشتراه اليهود » وهوجم منزله وقذف بيته بالحجارة ، ومرق بعضها من النوافذ مروق السهم ومنعت كتبه من التداول ، واحرقت صوره والقى بها فى السين ، ودعت احدى صحف باريس (صحيفة القول الحر) الى قتل زولا ونهب بيته .

واخيرا بلغ الهيـــاج غايته فقبض على زولا بتهمـــة القذف ، وحدثت مهزلة طويلة قيل انها محاكمة. فكان محامى زولا كلما سأل شاهدا ان يذكر من الحقائق مايثير جوانب القضية ، قاطعه القاضي بقوله (ارفض توجيه هذا السؤال) وألقى زولا فى ختام المحاكمة دفاعا ذلقا طلب فيه العدالة لا لنفسه بل لدريفوس . (انه برىء. أقسم على ذلك بحياتى وشرفى فى هذه الساعة الرهيبة وامام هذه المحكمة التى تمثل العدالة الانسانيـة وامام فرنسا وأمام العالم أجمع أقسم ان دريفوس برىء . وبحق الأربعين عاما التى قضيتها فى الكد والعمل. وبحق الصفة التى قد يخولنى اياها هـذا الجهاد اقسم على براءة دريفوس وبكل ماكسبت وبالسمعة التى أصبت وبمؤلفاتي التى أعانت على نشر الثقافة الفرنسية اقسم ان دريفوس برىء فليمزق كل هـذا شر ممزق ولتمت تواليفى جميعا ان لم يكن دريفوس بريئا . وانه لبرىء».

أما عن مصير زولا نفسه (فلن أتكلم .. وقد يصدر على حكم هنا ولكنى سأنتصر . فان فرنسا ستحمد لى يوما ما انى عاونت على انقاذ شرفها) .

ووجد المحلفون انه قد ارتكب جريمة قذف (فى حق متهمى دريفوس وساجنيه) فحكم عليه بغرامة قدرها ٣٠٫٠٠٠ فرنك ، فكلفه كفاحه فى سبيل احقاق الحق عمله وصحته وسمعته وما ادخره طول حياته وكسبه من اصدقاء وعاد الى سابق سيرته منذ اربعين عاما مزدرى محروما وحيدا .

لكنه اقام على كفاحه ، ونجح آخر الأمر فى ايقاظ ضمير فرنسا ؛ فأعيدت محاكمة دريفوس ، ووضحت براءته ، واطلق سراحه . لقد انتصر زولا وعاش حتى

شهد اليوم الذى تنبأ به اثناء محاكمته ، والذى تحمد له بلاده فيه انه أعان على انقاذ شرفها .

– ٧ –

لقد انتهى دوره على مسرح الحياة وآن للقـــدر ان يؤذن باسدال الستار . وقد أسدل على نحو مسرحى يناسب بطلا من طراز زولا . كنا فى الثلاثين من سبتمبر سنة ١٩٠٢ وكان سيزان اقدم أصدقاء زولا قد دخل لتوه مرسمه فى اكس واخذ يعد لوحة الدهان استعدادا لعمل اليوم ، فيهرع اليه بالأستوديو خادمه وقد تقطعت انفاسه تقطعا (مسيو سيزان مسيو سيزان لقد مات زولا) .

فيخفق قلب سيزان خفقة : كيف حدث ذلك ؟..

ـ حدث حادث يامسيوسيزان ذهب زولا الى مخدعه فى الليلة الماضية وقد ترك النار موقدة فانتشرت النار. الغاز .. الاختناق ..

لقد أطال زولا السهر ليلة موته . ووجدوا على مكتبه فى الصباح التالى صفحة مخطوطة لم تتم . بها عبــارة مكتوبة على عجل هى جماع فلسفته فى الحياة .

(ان نعيد بالحق خلق انسانية أسمى وأسعد) .

صموئيل لانجهورن كلمنس

(مارك توين)

(١٨٣٥ – ١٩١٠)

– ١ –

لم ينل مارك توين بعد حظه الكامل من الاعتراف، فلقد توج عمله بكل الوان التكريم عدا واحدا ، هو الفهم الواعي. فسمحنا لسمعته ان ترتكز على عمله الذى يأتى فى المرحلة الثانية من الجودة . فنحن نعجب به بوصفه أعظم أصحاب الفكاهة الأمريكيين ، ونتجاهله بوصفه من اعمق فلاسفة أمريكا . فاذا ضحكنا من فكاهاته ، نسينا ما ينطوى عليه كثير منها من ايجاع . فلقد ركزنا عنايتنا فى قلنسوته ونواقبسه بحيث لم نر النبى بعد اذ تنكر فى ثوب المهرج .

ولا مراء فى ان مارك توين كان صاحب دعابة . بيد ان المازحين الذين على شاكلته هم رجال يعلو وجوههم ابتسام ويعمر قلوبهم الألم . فانهم ليضحكون كما قال ذلك المتشائم الفكه الآخر فولتير ، تفاديا للانتحار. فلقد تعمقوا النظر فى كنه الأشياء فقلبهم الغباء المؤسف (للجنس البشرى اللعين) لذا اتخذوا لأنفسهم أقنعة هازلة اخفاء لما يحتجب وراءها من عبرات .

ان من عانى أعظم الألم ، تعلم كيف يضحك أبلغ الضحك . فأصحاب الدعابة وأصحاب التهكم واصحاب

السخرية القاسية .. اطفال الادب المشاكسون ، هم الثائرون بالحياة الذين غلبوا على امرهم . فهم يشفرون انوفهم بأصابعهم فى وجه القدر ، لأنهم فى عجزهم يدركون انه لم يعد لديهم ايماءة أخرى .

وكان مارك توين من أولئك الثائرين المغلوبين على أمرهم . كان يعتقد ان كل الجهاد البشرى مهزلة لاتهدف الى شىء « قصة يرويها معتوه مليئة بالضجيج والصخب وليس لها من معنى » .

فنحن نحاول ان نتخطف قوس قزح ، فنغرق فى الحمأة . نلتمس الوصول الى القمر فتتهشم عظامنا . وان الآلهة لتطرب لمنظر آمالنا العنيدة فى وجه هزيمتنا الدائمة . ولكننا أيضا فيما يعتقد مارك توين يمكننا ان نطرب اذا خففنا آلام هزيمتنا بمخدر الضحك . فاننا نستطيع النظر الى أنفسنا نظرة موضوعية بحيث ننعم بشهود آلامنا .

(تعلم كيف تألم كما يألم ممثل فى مسرحية الحياة . ولكن تعلم ايضا بوصفك أحد النظارة ان تبسم لألمك الشخصى) .

— ٢ —

كان صمويل كلمنس ثمرة زمانه ومكانه . فهو ابن الحدود . لذلك واجه الحياة فى فكاهة عابسة كما واجهها جميع السابقين الى سكنى هذه البقاع . وهذا الطراز من الدعابة كما يقول كاتب سيرته . البرت بجلوبين قد نما من ظرف متميز ، هو مغالبة الحدود ، وكانت الحرب ميئوسا منها بحيث كان اخذها ماخذ الجد معناه

الهزيمة . وكانت النساء يضحكن اتقاء للبكاء . وكان الرجال يضحكون حين لايعودون قادرين على السباب. ونبتت من ذلك فكاهة الغرب . وهى أعــذب الفكاهات وابعدها عن التنميق ، ولكن الأسى يكمن من خلفها. ولقد عرف صمويل كليمنس كثيرا من مآسى الحياة وهو لم يزل طفلا. فلقد تربى فى قرية فى منتصف الغرب من فقراء البيض . فرأى الأرقاء يجلدون ، والرجال يقتلون رميا بالرصاص فى الشوارع ، وكان أبواه يعيشان عيشة الرحل ، عيشة الحرمان خلا من الأمل والحب ، وكانا دائما فى (الجناح الغربى) يسافران من شاطىء البحر الى كنتـــوكى ومن كنـــتوكى الى تنسى ومن تنسى الى مسورى وفى مسورى ولد لهما صمويل (فى ٣٠ نوفمبر عام ١٦٣٥) .

وكان ابوه رجلا تخلى عنه الناس ، متوعك المزاج ، فاتر الهمة ، فكان قلما يلاعب أطفاله أو يبدى لهم أى حب ، فوجد صمويل ، فى ذلك الصبى الخشن ، الشكس الرث الضئيل ، الضعيف البنية ، العصبى المزاج، انه قد وقع تحت رحمة العالم التى لا ترحم وكانت سـنه حينذاك احد عشر عاما . فأخرج من المدرسة وعمـل صبيا لأحد الطابعين . وقد وصـفه الطابع بأنه حدث ضخم الراس ، متلطخ الوجه بالحبر ، ذو قدرة متناهية على الكسل . وقد وقع فى زمرة متسكعى القرية، وعلم كل جوانب الشذوذ البشرى ، والأسى البشرى . وبعد سن الثانية عشرة ببضع سنين شهد موت أخت له وأخ. وفى عامه الثالث والعشرين شاب راسه حين مات احد اخوته محروقا من أثر انفجار باخرة فى المسيسبى . وفى سن الثلاثين بلغ من برمه بالحياة انه «صوب غدارة مليئة الى راسه لكنه لم يجد فى نفسه الشجاعة على شـد

الزناد». فقرر ان يعيش وان يترجم أساه ضحكا. بيد ان ما صادفه فى الحياة بعدئذ لم يتح له الا فرصا قليلة للضحك وان جاءته بكثير من أسباب التعظيم فقد مات ابنه الأول بعد ولادته واصيب ثان بالتهاب رئوى نتيجة لاهمال مارك توين بسبب شرود عقله . فلقد كان يركب مع الطفل ذات صبـــــاح ثلجى وكان متدثرا بأحلامه الشخصية فنسى ان يدثر الطفل على نحو يقيه البرد . ونجا طفل آخر بأعجوبةحين ترك مارك توين عربة الطفل بلا اكتراث عند قمة تل شديد الانحدار .

(ماكان ينبغى ان يعهد الى بهذه المهمة) كذلك قال حين التقطوا الطفل من بين الأحجار عنــد قاع التل ، ورأسه ينزف دما : (لم اكن مؤهلا لأية مسئولية من هذا النوع فهذه مهمة من لديه على الأقل أوليات عقل، فانى ولاشك سأنسى نفسى حين ابنى قلاعا فى الهواء) .

وبعد سنوات كثيرة ، عاد من جولة محاضراتناجحة حول العالم . فعلم ان (سوسى) اذكى اطفاله قد ماتت أثناء غيابه .

ثم كانت أقتم مآسيه جميعا. ففى الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٩٠٩ كانت ابنته جين قـــد أرهقت نفسها طوال اليوم استعدادا لحفلة عيد الميلاد . فأعدت الشجرة ولفت الهدايا بأناقة وكتبت عليها العنوانات . وصار كل شىء معدا للحفلة . وقبلت جين اباها على عادتها وآوت الى مخدعها ، وفى الصباح نعيت جين الى مارك توين . فلقــد أصـــيبت بنوبة صرعية بينما هى تستحم . ماأندر من تطامنت له شهرة تفوق مارك توين. وما أندر من فاقوه تعاسة . لقد تعلم كيف يضحك فى صخب ، لــكن ضحكه كان ينطوى على مرارة .

وكان مارك توين ابنا حقا من ابناء الحدود ، الحدود بين الأمل البشرى واليأس البشرى . فهو حيثما تنقل سواء أكان ربان سفينة فى المسيسبى ، أم كاشفا للمناجم فى نيفادا ، أم مراسلا فى سان فرانسيسكو فهو يزداد معرفة وألفة بالكفاح والهزائم والجهـاد المتجدد الذى يقوم به (اخوته البشر ، شركاؤه فى اللعنة) وفى كل مكان كان يتشبع بحياة الحدود وفكاهتها . وكانت حيـاتها صاخبة وفكاهاتها زاخرة . وكان السابقون يحيون على الحدود بين الحقيقة المرة والخيـال المسرف . وكانت قصصهم التى خلقت فى سراب صحراء خشنة ، حيـة طروبا ، تدور حول أبطال مردة ، ومغامرات تفوق قدرة الانسان . قصصا عن أمثـال شمشون من الأمريكيين الأسطوريين (كبول بنيان) الذى تصبب عرقه وهو يكدح على سفح الجبل ، فتـدفق الى الوادى وكون البحيرة الملحة الكبيرة . وقصصا خرافية عن أمثال (مانشوزن) من الأمريكيين كجيم بردجس ، الذى ضـل طريقه فى الغابة المتحجرة ، بينما هو يفر من الهنود . والذى تحجر هو نفسه فى وسط الهواء حين هو يقفز عبر خانق ، اذ ان قانون الجاذبية نفسـه قد تحجر فى تلك الغابة .

وقصصا مفرقة فى الخيال عن جرادة صغيرة قطع من عجيزتها شريحة لحم ضخمة لتقدم لكل رواد أحد المطاعم . وعن شجيرة (لفت) أوغلت جذورها فى باطن الأرض . فاذا شددتها تفجرت بئر ارتوازية فى وجهك وقذفت بك فى الهواء . وعن ابرة دفعت بها فتاة صغيرة فى قدمها مصادفة ، فظهرت بعد جيلين فى راس حفيدتها. وكان أحب شىء الى أهل الحدود ان يسـتمعوا الى

السخرية الهازلة المسرفة بأصحاب الملايين الأمريكيين المستحدثين ، وكان أحد أصحاب الملايين هؤلاء يملك منجما للفضة فى نيفادا ، وكان ينام فى السرير العلوى بأحد الفنادق وتذهب القصة الى انهكان ينام فى السرير السفلى عامل عادى . واستيقظ العامل من نومه فى الصباح وهو يعانى آلاما مبرحة فى كل أجزاء جسمه ، ولم يستطع أى دواء ابراءه من عذابه حتى ذهب الى حمام تركى . فتصبب العرق من مسامه كومة من مسحوق الفضة تبلغ قيمتها ٤١٧ دولار و ٩٢ سنت ، وكان قد امتصها من صاحب الملايين الذى كان ينام فى سرير يعلو سريره .

هذا مثال من القصص الشعبى الخرافى الذى كان يطرب له رواد هذه البقاع فى منتصف القرن التاسع عشر. وكان هذا القصص جزءا كبيرا من الزاد الأدبى الباكر الذى طعمه مارك توين . ولكن فضلا عن ضحك قوم صاخبين يجيشون بحب الحياة ، كان ثمة حزن الشخصية الوادعة التى تجاهد الموت . فلقد كان مارك توين متشائما ، وكان يقول (ان الرجل الذى لايتشاءم لايعرف عن الحياة الا اقل القليل) . أما هو فيعرف عن الحياة اكثرمما يلزم. فهى لم تجاوز فى نظره مباراة بين الآلهة فى كرة القدم . وخير هبة تستطيع الحياة تقديمها الينا هى الموت (اننى لم أسرف فى حسد أحد الا الموتى ، انى أحسدهم أبدا) .

وحين ثار أساه ثورته الأولى بعد غرق جين ، اعرب عن ايمانه بأنه ماكان ليرجعها الى الحياة لو استطاع (لم يعد فى الحياة شىء بعد فقدها ؛ وحياتى أصبحت مريرة ، ولكنى قانع راض . لانها أصابت اثمن هبة ،

هبة الموت التى تصغر أمامها الهبات وتتضاءل . انى مذ بلغت الحلم لم أرد لصديق أطلق سراحه ، أن يعود الى سجن الحياة) .

انه يرى مع الحكيم اليونانى (سولون) انه لاينبغي ان نعد أحدا سعيدا حتى يموت . ولسان الحكمة البشرية ، هذا الذى اثمره الشقاء البشرى ، يجد له متنفسا دائما فى مؤلفات مارك توين . كتب فى (بودنهد ولسن) يقول « ان من امتدت به الحياة الى أن أدرك ماهية الحياة ، يدرك مبلغ الدين الفادح من العرفان بالجميل الذى علينا أن نقدمه لآدم صاحب الفضل الأول على جنسنا . فلقد جلب الموت الى العالم » . ويقول أيضا « يقول الجميع انه ليشق علينا اننا مضطرون الى الموت فما أعجبها من شكوى تصدر ممن اضطروا الى الحياة » . وفى قصة (الغريب الغامض) يعلق الشيطان على السعادة البشرية بقوله « لايستطيع السعادة انسان عاقل لأن الحياة عنده شىء حقيقى ، فهو يرى مبلغ مافيها من هول. وانما يستطيع السعادة المجانين » .

وكان كل هذا عند مارك توين ، اجل من أن يكون موقفا متصنعا . فان كلماته عن الحياة والموت تحمل فى ثناياها مذاق الصدق والاخلاص . فلقد صيغت من تجاربه الشخصية ، وبرهن على صحة نصيحة هوراس للشعراء فى قديم الزمان : « ليس لكاتب ان يستثير بكاء الآخرين ما لم يكن هو شخصيا قد بكى » ويقول ذلك الأمريكى من ولاية كونكتيكت « ان الالفاظ لاتحقق شيئا ولا تبعث لك الحياة فى شىء ، ما لم تكن قد عانيت بنفسك ما تحاول الالفاظ وصفه » لقد كان مارك

توين أشبه بوالت ويتمان ، ذلك المفكر الكبير من رجال القرن التاسع عشر ، الذى لم ينل حقه من التقدير . فى انه كان يفقه ما يقول اذ وصف الموت ، الموت المبارك، بأنه الطبيب الوادع الذى يحررنا من اشد الأمراض هولا ، وهو الحياة .

— ٤ —

لاتخلو سخرية عظيمة من معنى الرثاء ، وكانت سخرية مارك توين تنبت من رثائه وزرايته . كان يرثى لعجز الضعيف، ويزدرى تهور القوى . يقول اناتول فرانس : انه يمكن تلخيص التاريخ الكامل للجنس البشرى فى كلمات قليلة (يولد الناس ، ويتألمون ، ويموتون) أما مارك توين فكان يود لو عدلت هذه الكلمات فصارت : (يولد الناس ، ويجبر بعضهم بعضا على الألم ، ويموتون) فهو على حبه للبشر من حيث هم أفراد يتحرش بهم غيرهم ، يمقتهم من حيث هم قطيع من الذئاب يتحرشون بغيرهم .

وحين كان صحفيا شابا نافذ البصر لاذع القلم ، اضطر الى الهرب من (سان فرانسيسكو) لأنه انتقد غش رجال الأعمال وفساد الساسة . فيمم جهة الشرق ، فزاد بصره نفاذا وقلمه حدة . والشرق ، وبخاصة نيوانجلند ، بفضل غريزته الصنف التالى فى الجودة ، اذا استعرنا العبارة البارعة لبرنارد دى فوتو (فالقوم المهذبون) قد عجزوا عن فهم ذلك الفوضوى الأحمر الشعر الآتى من الغرب . ولكن الفوضوى الاحمر الشعر قد فهم القوم المهذبين . ووجدهم ليسوا مهذبين كل

التهـذيب ، سواء فى هارتفورد أو بوسطن أو كامبردج او غيرها .

وكان يعتبر الناس عموما ــ بما فيهم هو ــ من أحط الحيوانات . فاذا سئل هل يجرؤ على وضع انسان فى منزله الفار . اجاب بكل جد (كلا .. فهذا ظلم للفار).

قال فى (بدنهد ولسن) ان الفرق الرييسى بين الانسان والكلب هو : (انك اذا التقطت كلبا يموت جوعا فوفرت له أسباب النعمة ، لم يعضك هذا الكلب) وكانت هذه الفكرة تشغل باله فى الشطر الأعظم من سنى حياته .

وكتب قبل موته بأيام قليلة بأسلوبه الفكه الحريف (اذا بلغت الجنة فاترك كلبك خارجها ، فدخول الجنة انما يتم على أســـاس المحسوبية ، ولو كان بالجداره لبقيت أنت خارج الباب ولدخل هو) . لقد اعلن مارك توين : ان الانسان حيوان ولكنه ليس وحشا فانه لم يصل بعد الى المستوى الخلقى للوحش. فالوحش يقتل من الجوع ، والانسان يقتل من الحقد . يرى الشيطان فى (الغريب الغامض) صبيا صغيرا كيف يعذب الجلادون مجدفا فى الدين ، وقد تقزز الصبى من المشهد فقال للشيطان (ياله من عمل وحشى) فأجابه الشيطان (كلا! بل هو عمل انسانى) . يقول مارك توين : (ليس من حيوان يحترم نفسه يقبل العيش مع الآدميين لو كان له أن يختار) وفى (قصة حصان) كان حصانان فيلسوفان، الحكيم برش والحكيم مونجرل ، يناقشان وسائل الآلهة ودهاء الناس .

الحكيم برش ــ لقــد رأيت كائنات بشرية كثيرة فى زمانى ، لقد خلقوا كما هم ولا مفر لهم من ذلك ، انهم

مجرد وحوش لأن هذا طرازهم . فالوحوش تكون بالغة التوحش اذا كانت من هذا الطراز .

منجرل — من رأيى أيها الحكيم برش ، أن الانسان بالغ الغرابة وعويص الفهم . لماذا بعامل العجماوات بقسوة ؟ (فترة تفكير تستمر لحظات ثم) حينما نموت أيها الحكيم برش ، هل نذهب الى السماء ونعيش مع الناس ؟

الحكيم برش — أبى لم يكن يظن ذلك . كان يعتقد انه لن يكون علينا العيش مع الناس فى الجنة ما لم نستحق ذلك .

— ٥ —

ولم يكن اتهام مارك توين للجنس البشرى اتهاما معنويا مجردا ، فهو من آن الى آخر حتى فى أشد كتبه مرحا ، يذكر أمثلة مادية على عدم انسانية الانسان مع الانسان ، فهو يحاول ان يعرض للسخرية كل صور الظلم والفساد والاستغلال والرشوة ، والنفاق والقهر والكراهة والجشع . وهو يحاول اغراق الظلم فى طوفان التهكم . ويغسل الطلاء الذهبى السطحى للعصر الذهبى . ويفضح الدمامة العارية للساسة والمستغلين الذين يكتنزون اللحم من مصائب رفاقهم ، ويمزق خدع الطغاة والأباطرة ، فاذا هم تحتها مجرد تلفيقات جوفاء . وكان الأمريكى من كونكتيكت والملك ارثر مسافرين فى ثياب تنكرية فظن انهما اثنان من اجلاف الريف وبيعا بيع الرقيق . فيقدر ثمن الأمريكى من كونكتيكت بثمانية دولارات أما الملك فلا يساوى أكثر من سبعة دولارات بحال من الأحوال .

والملوك فى رأى مارك توين ، ترف خطر. واذا كان على الأمة أن تعبد شيئا فليكن أسرة مالكة من القطط. وستكون أخلاق هذه القطط عموما أسمى من اخـــلاق الملك العادى بكثير، وليلاحظ.. انها لم تشنق أحدا ولم تطح براس احد ، ولم تسجن أحدا ولم تقارف القسوة او الظلم من أى نوع . لذلك فهى أجدر بعميق الحب والتبجيل من الملك العادى من البشر. وسرعان ماتتعلق أبصار العالم المغتصب بهذه الأسرة الرحيمة الوادعة ، ويبدأ الملوك القصابون فى الاختفاء .

ولم يكن مارك توين يهاجم الحكام السلميين ، وانما هو يهاجم الملوك القصابين، فهؤلاء الأطفال الطغاة السيئو الخلق فى الأسرة البشرية ، لم تكفهم رقعة الأرض التى خصصت لهم ، فاصطخبوا فى طلب ما نزيد عن نصيبهم، بل ولم يقنعوا بذلك .

وكان مارك توين يمقت روح العدوان الحربى اكثر مما يمقت أى شىء آخر فى العالم ، ولقد خبر فى صغره من الشجار ما شفاه منه بقية حياته .

قال ذات مرة اذا شـــاء محب الشجار أن يحاربك فاخلع سترتك فى بطء وتعمد . وانظر فى عينيه مباشرة، ثم فى بطء وتعمد أيضا اخلع صدريتك ، ثم شمر عن ساعدك وواصل نظرك فى عينيه . فاذا لم يكن خصمك قد فر من وجهك حتى ذلك الوقت فخير لك انت ان تفر من وجهه .

وليس معنى ذلك ان مارك توين كان من أنصـــار التهدئة . أو انه كان جبانا . فأمره على نقيض ذلك . اذ ماكادت الحرب الأهلية تنشب حتى تطوع فى الجيش

لاتحادى وظل فى الخدمة حتى أخلى منها مشرفا . فهو لايخالف الحرب الشريفة لـكنه يفزع من اللصوصية الغـادرة . وهو يقول (ان تاريخ البشر زاخر بتلك اللصوصية الغادره التى تنتحل دائما ثوب الهدف النبيل ان قصة البشر لا تعدو سردا موجزا لقصة سفك دماء البشر) فقد بدأ بسلسلة طويلة من الحروب المجهولة ، اغتيالات ومذابح . ثم جاءت الحروب الأشورية ثم كانت الحروب المصرية واليونانية والرومانية ومافيها من اغراق رهيب للأرض بالدماء .. وكان لدينا دائما حـروب ، ومزيد من الحروب .. فى كل أرجاء أوروبا وكل أرجاء العالم .. أحيانا لتحقيق صالح شخصى للأسر المالكة ، واحيانا لسحق امة ضعيفة ، ولكن لم يحدث قط ان بدأ أحد المعتدين حربا لأى هدف نظيف .. فان تاريخ الجنس خال من مثل هذه الحرب .

ولكن اعنف ما وجهه من اتهام الى وحشية العدوان، وهو أعنف ماكتبه اى كاتب أمريكى فى ذلك ، هو دعاء الجندى ، تلك المقطوعة الساخرة ، والدعاء الخيالى ، الذى يقدم صورة مادية للعقلية النابليونية (أو لعـل مارك توين كان يدعوها الهتلرية لو عاش فى أيام هتلر).

(ربنا اعنا على تمزيق جنودهم بقنابلنا ، فتصـير جسومهم شرائح ملوثة بالدم وأعنا ربنا على ان نغطى حقولهم الباسمة بأشلاء قتلاهم الوطنيين ، وأعنا اللهم على ان نغرق قصف المدافع فى طوفان من صرخات جرحاهم وهم يتلوون المًا ، وأعنا على تخريب بيوتهم المتواضـعة باعصار فيه نار ، وأعنا على حرمانهم المأوى ، فيهيمون على وجوههم مع أطفالهم الصغار بلا محب ولا صديق وسط الخراب الذى نزل بأرضهم المهجورة ، فى أسمال

تمزقت شر ممزق جائعين صادين ، تلفحهم نارالشمس صيفا ، والرياح الثلجية شتاء ، كسيرى الخاطر قد أضناهم العناء ، ضارعين اليك أن تأويهم فى القبر فتأباه عليهم . ورحمة بنا نحن عبادك أعصف اللهم بآمالهم واجعل حياتهم وبالا عليهم ، ومد اللهم فى رحلتهم المريرة ، وأثقل خطاهم ، وارو الطريق غدقا من دموعهم ، ولطخ الثلج الأبيض بالدماء التى تنزف من أقدامهم الجريحة ! اللهم أجب دعاءنا ، ولك المجد اليوم والى أبد الآبدين ، آمين) .

― ٦ ―

كان مارك توين يمقت البغضاء . وكان هذا الشعور يشتد به أحيانا بحيث يكون عليه كما أكد ذلك (ان أمسك بقلمى ، وأسطر أفكارى على الورق ، مخافة ان تضطرم النار فى داخلى) فلقد كان مارك توين فى أوجه ينتمى الى جماعة الأنبياء لكنه ــ باعترافه ــ كان لايقدم للعالم دائما خيرماعنده . فلقدكان ولعه بالترف بالغا ، وجوعه الى الشهرة جائحا بحيث لايستطيع ان يقول كل ماعنده فى أى كتاب من كتبه الأولى . فكان يحاول ان يغطى الثورة التى تضطرم فى روحه بثوب مما يحترم الناس. أما جولته الثائرة الصريحة الوحيدة الجادة ، حين حاول تطهير سياسة سان فرانسيسكو فقد أخرجته هو من عمله وبيته . فأيقن الا جدوى من السباحة ضد التيار ، فلقد وجد ان التماس النجاح يضطر المرء الى أن يصل نفسه بمن فى يدهم مقاليد الأمور . وكان آنسون برلنجيم وزير أمريكا فى الصين قد نصحه يوما (بألا يكن لك شأن بصغار القوم ، وعليك بالتسلق دائما)

وكانت هـــذه النصيحة كما كتب البرت بيجلوبين هى (انجيل) مارك توين الذى لم يغب قط عن ذاكرته .

وقضى مارك توين الشطرالاكبر من حياته وجل عنايته منصرف الى التسلق فلم يكن ينشـــط لتأليف كتاب (مالم يكن وراءه مال ، ومال كثير) اذا استخدمنا قوله. لذلك كان يحذف ـ أو يدع أصدقاءه يحذفون ـ كثيرا من مرارة الكتب التى كان يؤلفها فى فترة (التسلق) فلن قراءه لن يفهموا ، ولن يحسوا جزاء التفكير الجدى . كتب فى بودنهد ولسن يقول « ليست السخرية ممـــا يلائم هؤلاء الناس . فان بصرهم العقلى ليس مهيـــأ لادراكها » لذلك قدم للناس سلسلة من الكتب وطائفة من القصص الصغيرة . يوجد فيها أقل ما يمكن من المرارة ممزوجا بأكثر مايمكن من الحلاوة . وكان ذوقه الشخصى أسمى كثيرا من ذوق كثير من قرائه . وكان يدهش للعقلية الساذجة التى تســتطيع الضحك من قصة باردة مثل The Jumping Frog بل ولم يكن فخورا بشكل خاص بقصة Huckleberry Finn أحسن قصصه التى تنتمى الى هذه المجموعة . وكان يتفق مع هنرى جيمس على ان هـــذه القصص انما تستميل العقول الاولية . وكان يكتب لجمهور كبيرلانه كان أكثراهتماما بماله منه بفنه . وكان يخجل لجمهوره الضخم . (ان لديكم ادراكا للفكاهةكما تدركها الخيول لاأكثر، وجمهرتكم لديها هذا الادراك ، وتلكالجمهرة ترى الجانب المضحك من آلاف الأشياء التافهــة الرخيصة . مثل المفارقات البعيدة ، وخاصة تلك الغرائب والسخافات التى تثير ضحك الخيل) .

انه ليخجل لجمهوره الضخم غير النــاقد ، ويخجل

لنفسه اذ أعوزته الشجاعة على الكتابة لقراء اصغر عددا وأدق بصرا . قال مرة (انك لترى ان وراء مظهرى المستبشر ، روحا غاضبة منى لاتألونى زراية) .

ويعترف بأن بريق الذهب قد استهواه وكان بلوغه نباهة الذكر والثراء على غير انتظار أشبه بقصة خيالية من ألف ليلة ، ولم يستطع قط ان يبرأ من العجب لها . لقد اشتغل صبى طابع ، فربان قارب بخارى فى المسيسبى ، فمنقبا فاشلا عن الذهب فى نفادا ، فمراسلا مغمورا فى سان فرانسيسكو . ثم يجد نفسه على حين فجأة مؤلفا غنيا لكتاب شهير فلقد ربح ٣٠٠ر٠٠٠ دولار من قصة « الأبرياء فى الخارج » وصهرا لأحد اصحاب الملايين من ملوك الفحم فأسكره النجاح وأدار رأسه دوارا كليا . فأخذت آماله تشرئب الى بعيد الأهداف. شأنه فى ذلك شأن الكثير من معاصريه . لقد أصبح الأدب فى نظره صناعة . وكان حريصا على ان يثبت لصهره مستر روجرز ان تأليف الكتب يدر من المال مثلما تدر تجارة الفحم وما عليك الا ان تقدم للجمهور مايريد .

وهكذا باع الضحك بالذهب ، واستحال الذهب فى يده رمادا ، لأنه كان شخصية مزدوجة : جسم صمويل كليمنز المنقب عن المال وروح مارك توين المحبة للحرية. وكان من عادته دائما ان يكتب فى الأمور التى يخاطب فيها الناس كتابين احدهما يعبر فيه عن آرائه الشخصية فلا ينشره . والثانى يعبر فيه عن آراء الناس ، وهذا هو الذى يبعث به الى الناشر . وكان يفسر ذلك بقوله : ان على أن أكفل رزق عائلة ، ولا يسعنى أن أصرح بالحقيقة كاملة . ولكنه كان على تردده رائدا من الناحية

العقلية ان لم يكن من الناحية الخلقية . وقـد تجلت روحه الخلاقة على استحياء فى Tom Sawyer وفى The Prince وفى Captian Stormfield's Visit to Hedven وفى Pudd'n head Wilson وفى A connecicut Yonker وفى Huckleberry Finn Hadleyberg وفى The Man that corrupted

وجاءت متتالية كأنها أيام الصيف ، مليئة بضـــوء الشمس والضحك ولـكن يقاطعها من آن لآخر قصف الرعد الساخر من بعيد . وكانت هذه الروح السباقة نفسها هى ماتكلم أخيرا دون خوف فى (الفريب الغامض) هذا الكتاب الذى لم ينشر الا بعـــد وفاته نزولا على نصيحة زوجتـــه ، قد عرض الحقيقة آخر الأمر كما رآها . فانه بعد أن استهدف بلوغ قوس قزح فلم يجده غير سراب . وبعد اذ جمع مالا كثيرا وبدده ، وخبـــر (الاكتظاظ المؤسف) بالأصدقاء والشهرة ، وبعد ان ذاق نعمة الحب ، ومرارة فقد من أحب ، فـد جمع خيوط حكمته وعذابه ونسج منها قصـــة من عيـــون القصص (هىالفريب الغامض) The Mystcrious Stronger

وكانت فكرة هذا الكتاب قد نمت فى عقله منذ سنوات كثيرة (لقد عزمت منذ زمن طويل على ان أؤلف كتابا كهذا بلا تحفظ . كتـــابا لايحفل بمشاعر أحـــد ، أو بقصده ، أو رأيه أو معتقداته ، أو آماله أو أوهامه أو انخداعاته . كتابا يقول قالتى : صـادرا من قلبى مباشرة فىأبسط لغة ، متحللا من كل القيود علىاختلاف أنواعها) هذا ما قاله لوليم دين هولز .

كان (الفريب الفامض) فريدا فى كتب مارك توين فى ان المؤلف قد كتب فيه كل ماعنده ، ولعله منالناحية

الفنية يقل شأنا عن (هكلبرى فن) بيد انه أروع تواليفه من الناحية الفلسفية ، وهو فى اعتقادنا كتابه الوحيد الذى يرفعه الى مصاف كبار أصحاب التهكم والسخرية، سرفنتس ، وسويفت ، وفولتير ، وأناتول فرانس .

و (الغريب الغامض) هو قصة زيارة الشيطان لاسلدورف وهى بلدة كانت بالنمسا فى العصور الوسطى. واسلدورف عالم مصغر، وسكانها قطاع من الجنس البشرى . وليس هم الشيطان فى هذه القصة مساعدة البشر أو افسادهم ، وانما هو يرقب صراعنا من حين الى حين ، كأنه المتفرج المستمتع ، حين لايشغله عن ذلك ماهو خير منه . وحين اقبل على (اسلدورف) عرف ثلاثة أطفال بنفسه ــ فنحن جميعا فى نظر الشيطان أطفال ــ ومكنهم فى خلال فترة قصيرة من أن يروا الحياة كما يراها هو فى سامى حكمته . فبين لهم اننا قد أصرنا الحديقة الجميلة التى ولدنا فيها الى كومة من القاذورات.

وهذا قسيس مسن هو الأب بطرس يوقف عن عمله بالكنيسة ، لأنه جرؤ على توكيد القول بأن الله كله رحمة وخير. فقد تساءل أهل اسلدورف : ماذا سيبقى من تقوى الجحيم اذا سمح لمثل هذا الرجل بالبقاء واعظا فى الكنيسة . وتلهف حكام اسلدورف على قيادة الحملة الشعبية لاضطهاد الأب بطرس . فقد استنتج الحكام ان القسيس الذى يقول بأن الله لايعذب المذنبين عذابا أبديا ، لابد انه شخصيا من المذنبين . ولذلك اتهموا الأب بطرس بالسرقة وحبسوه فى زنزانة فى انتظار المحاكمة .

فراع مشهد تعذيب الأب بطرس الصبيان الثلاثة الذين أحبوه ، ولكن الشيطان يطمئنهم الى ان كل شيء

وبينما القس فى انتظـــار المحاكمة . كان الشيطان يسلى صبيين منهم بالنظر الى قلب الأشياء وصميمها، ولم يكن المنظر مبهجا . أما الصبى الثالث فان الشيطان قد أعد له تسلية كريمة من نوع آخر ، فلقد اغرقه . ويفسر ذلك لرفيقى الصبى الغريق وقد تصدع قلباهما فيقول : ان هذا أسعد حظ يمكن أن يلقاه اى كائن حى.

ويقدم الأب بطرس للمحاكمة آخر الأمر. ولايكاد يبدو ان أمامه فرصة للتبرئة ، لأن أصحاب الأمر قد أحكموا اثبات التهمة عليه . ولـــكن الشيطان يقول للصبيين : لاتراعوا فــكل شىء صائر الى الخير .

ولقد وفى الشيطان بوعده حقا . فهو لم يقنع باثبات براءة القس المسن الوادع . بل زاد على ذلك انه كفل له السعادة القصوى بقية حياته . وكانت الطريقة التى جلب بها السعادة للقس بطرس غاية فى البساطة . فقد حمل للقس المسن فى زنزانته نبأ كاذبا عن الحكم الذى صدر فى قضيته : (انتهت المحاكمة وستظل بقية عمرك ملطخا بعار السرقة) ولا يسمع الرجل المسن ذلك حتى يفقد رشده ويغدو سعيدا كالطير، ويعتقـــد منذ ذلك الحين انه امبراطور العالم ، فينعم بمجد الحاكم المطلق دون ان يحمل شيئا من همومه . فيشده صاحبا القس بطرس من هول الموقف .

ولكن الشيطان يعيد الثقة الى نفسيهما بقوله : ان الجنون هو أقصى هبة ـ بعد الموت ـ يستطيع الآلهة أن يمنحوها الانسان . فليس من طريقة يكفلون بهـــا للانســـان سعادة مطلقة الا الجنون المطبق . ذلك بأن

العالم كما يقول مارك توين فى الختام هو دارة الجنون ، وما الحياة الا كابوس مجنون بين النوم والنوم « ومن عجب انك لم تحدس ان عالمك وما فيه ، هو مجرد أحلام ورؤى وخيال . مع أن سيرته تنبىء بصريح الخيال.. شأنه فى ذلك كشأن الأحلام ، انه يستطيع بسهولةخلق الأبناء الخيرين والأشرار ، فيؤثر صنع الأشرار، ويسعه ان يكفل السعادة لكل واحد منهم ، فلا يكفل السعادة لأحد منهم ، وجعلهم يسرفون فى تقدير حياتهم المريرة ومع ذلك فقد اختصرها فى شح ومنح ملائكته سعادة أبدية دون جهد ، وطالب أبناءه الآخرين ان يصيبوها بجهدهم ، ووهب ملائكته حياة خلت من الألم ، وأتعس أبناءهالآخرين بألوان الشقوةوالمرض العقلى ،والجسمانى. وتحدث عن العدل وأنشأ جهنم.. وتحدث عن الرحمة وانشأ جهنم .. وتحدث عن الحكم الذهبى والغفران، واجزال الثواب ، وانشأ جهنم .. وخلق الانسان لم يستشره فى ذلك ، ثم حاول ان يحمل الانسان مسئولية عمل الانسان « ان ما أظهرتكم عليه هو الحق . ليس ثمة كون ولا جنس بشرى ولا حياة أرضية ولا علوية. كل هذا مجرد حلم . حلم غريب أحمق . ليس من كائن الا أنت ، وما أنت الا فكرة ، فكرة حائرة لاجدوى منها وما مأوى لها ، تنتقل يائسة بين القرون الخاوية ».

وبعد اذ عبر آخر الأمر عما اعتقده باخلاص، اجتاز الساخر الحزين العظيم حدود الحيـاة ، الى ... من يدرى ؟ ربما الى حلم أجمل وأصدق .

توماس هاردى

(١٨٤٠ ـ ١٩٢٨)

ـ ١ ـ

ينسب الى أرنولد بنيت أنه قال ذات مرة لهيو والبول: «أن مصيرك يتحدد ياعزيزى منذ ولادتك» ، وهذه الحقيقة العالمية التى قيلت فى معرض الفكاهة تتمثل كل التمثل فى حياة توماس هاردى .

فقد ولد هاردى ذا جسم ضعيف وعقل قوى وروح دافقة الشعور . فكان منذ بدايته الأولى مقضيا عليه بحياة الأدب . كان فى طفولته يحب ان يرقب الديدان فى المستنقعات الصغيرة قريبا من منزل أبيه فى دورستشير (تلك المخلوقات الصغيرة القليلة الحول التى تمضى وقتها فى لهو مجنون صاعدة هابطة فى المـــاء اللزج الفـــاتر بالمستنقع الجاف) ، وطالما تساءل ما معنى كل هذا . فاذا علت به السن أدار التفاتة الى ديدان البشر . وهى اكبر من صاحبتها ، لكنها تستوى معها فى العجز فهى تتمرغ وتتكاثر وتموت فى المستنقعات الصغيرة بالعالم . وقرر أن يجلس على جانب الطريق وأن ينفق حيـــاته جاهدا فى الـكشف عن معنى كل هذا .

ـ ٢ ـ

كان عند ميلاده (٢ يونية ١٨٤٠) شديد الوهن بحيث

صرح الطبيب بانه ميت . ولكن بفضل ممرضة الأسرة التى صفعته صفعا عنيفا ، أعيد الى حياة قدر لها أن تستمر نحو تسعين عاما .

كان أبوه مقاول بناء ، سمح لابنه الصغير ذا الوجه العجوز أن يتجول فى المرج بدلا من ان يذهب الى المدرسة (دعه يعب من ضوء الشمس عبا . فانه يستطيع ان يمتص تعليمه فيما بعد) . كان تعليم الطفل الأول اذن فى الهواء الطلق فطالع كتب الجداول الجارية . وأحاط علما بالأحياء عن طريق الحواس الخمس جميعا ، وعن طريق حاسة سادسة ... عطف شامل وسع كل شىء ، فهو يهتز اذا راى أو سمع الحيوانات أو الطيور أو الأشجار . كتب فيما بعد (تعلمت فى طفولتى ان لكل جنس من الشجر صوته ، كما ان له ملامحه ، فاذا هب النسيم تنهد شجر الشربين وان ، تستبين ذلك فى وضوح كما تستبين تمايله وترنحه . وشرابه الراعى تصفر وهى تصطرع مع نفسها، وشجرة لسان العصافير تئز بين اهتزازاتها ، وللزان حفيف بينا افنانه المنبسطة تعلو وتهبط) .

شعر انه والطبيعة كلها وحدة .. تصله قرابة دم بالرياح والسحب والفراشة والنملة والعصفور والسنجاب والحمل ولطالما حاول فى مخيلته الحية أن يتقمص شخصية هذه المخلوقات الخارجة عنه. وجعل من نفسه خروفا ذات مرة ونزل يسعى على أطرافه الأربعة فى حقل ، وأخذ يأكل العشب . فاذا رفع بصره استولى عليه الارتباك — كما قال فيما بعد — اذ رأى الدهشة فى أعين الخراف الأخرى من منظر زميلهم الجديد فى القطيع .

فلما بلغ عامه التاسع كان قلبه قد اتسق تماما مع قلب الطبيعة . وبدأ تعليمه المنظم . فبعث به ابوه الى اكاديمية (لاست) للشبان . وهى مدرسة حرة تبعد ثلاثة أميال عن كوخ هاردى وفى كل يوم فى ذهابه الى المدرسة وعودته منها كان يقف ليأخذ فى حديث ودى مع رفاقه فىاللعب ، تلك الخلائق البرية فىمرج (اجدن) لكنه ذو ولع خاص بمشاهدة وجوه البشر وكان عليه اذا اقترب من دورستشير وهى المدينة التى بها مدرسته ان يعبر قنطـــرة من الحجر وكان يحب دائما ان يقف وسط القنطرة ويدرس من يمرون عليها (ان فى وجوه البشر لكثيرا من القصص الممتع) .

وكان فى المدرسة اضأل تلميذ يحمل اكبر رأس فى فصله . وذهل مدرسوه من سرعة استيعابه للعلوم . فلما تخرج فى السادسة عشرة كان على أتم علم بالآداب اللاتينية والفرنسية والانجليزية وخاصــة مسرحيـات شكسبير فهو يكاد يحفظها عن ظهر قلب .

وكان به شوق شديد الى الالتحاق بالكلية ، هــذا الهادىء الشغوف بالدرس الحساس ، جود المغمور(١) الضئيل . ولكن أباه لم يكن يحتمل هذا الترف . فقد آن للصبى ان يصيب رزقه . فيجب ان يعلم مهنة أو حرفة . تكون من السهولة بحيث لاترهق جسمه الواهن الضعيف . ترى هل يحترف الموسيقى ؟ أن تومىعازف لابأس به وقد تعلم العزف على ابيه لكن العزف هــذا لايدر عليه مالا فانه كثيرا ماعزف مع ابيه فى حفــلات

(١) اشارة الى احدى قصصه Jude the Obscure وهى آخر ما كتب من قصص : وشخصية جود فيها قريبة الشبه بشخصية هاردى .

الزفاف بالريف . لكن كيف يدور بخلد عازف يحترم نفسه من (دورستشير) أن يتقاضى أجرا على هـــذه الخدمة الودية فهل من شيء آخر يستطيع محاولته ؟ أيعمل فى الكنيسة ؟ ولكن تقف دون ذلك عقبتان.. انه فقير، وانه ضئيل تقتحمه العين اقتحاما فلم يبق غير مهنة واحدة اذن .. هي الهندسة . فالأب بناء مجيد فليكن الابن رساما مجيدا للأبنية .

وهكذا عهد بتدريب توماس هاردى الى جون هكس وهو مهنـــدس يتخذ له مكتبـــا فى المدينـــة المجاورة فى دورستشير .

لكن هاردى ليس شديد الكلف برسم اللوحات الزرقاء. ويرى فى العمل آلية لايحتملها فهو فنان لا عالم . فكان على أمانته لعمله ينفق كل فراغه فى الدراسة والأحلام. كان يصحو من نومه الساعة الخامسة صباحا وأحيانا يصحو فى الرابعة وينفق ساعتين يعلم نفسه فيهما قراءة اللغة اليونانية وما هى الا ثلاثة أعوام حتى استطاع ان يتحدث فى طلاقة مع اسكلس وهوميروس وكذلك مع كتاب العهد الجديد .

وظل محافظا طيلة هذا الوقت على مودته مع لغته الأثيرة ، أجرومية الطبيعة وكان يترجم هذه الأجرومية الى موسيقى انجليزية لقد عرف انه شـــاعر « بدأت أكتب الشعر لأنى لم أجد عنه منصرفا ، فان أمرا قد صدر الى بذلك من أعماق نفسى » .

أوامر من الداخل لكن لاتشجيع من الخارج « كنت ابعث بقصائدى فتعود الى لا تتخلف منها واحـــدة . وظلت أعواما طويلة لايمسها اى ناشر » وكان هاردي

لايحسن البيع . فهو أبعد الناس عن المزاحمة والمدافعة. وظل حتى آخر أيامه لم يحذق فن الاعلان عن نفسه . قال سير جيمس م. باري ذات مرة « مهما يكن الملاك الذى يحرس أبواب الجنة فان عليه ان يدفع بتوماس هاردى الى داخل الجنة دفعا » أما الآن فليس من حارس لأبواب جنة النشر يرغب فى دفعه الى داخلها دفعا ، أو حتى فى مجرد دعوته ، وظل أعواما يقدم درره ، لا الى الخنازير ، بل الى ناشرين رأوها حبات من الطين .

والحق ان كثيرا من قصائد هاردى الأولى وبعض قصائده التى تلتها كذلك كانت تحوى نسبة عظمى من الطين . ولم يكن هاردى شاعرا كبيرا ، فقد كانت لديه عناصر العبقرية الشعرية . لديه الموسيقى والخيال والعاطفة ، وتذوق العبارة المعبرة والفكرة المركزة والسحر الذى تتلألأ به الأحرف كأنها النجوم . كل شيء كان حاضرا لديه خلا النار ، وكان هاردى يعرف هذا النقص فى عناصر كفايته فهو يقول « أخشى الا اصير اديبا يوما ما لقد كتب على أن أرسم اللوحات الزرقاء مدى الحياة » .

وكذلك سافر الى لندن مهندسا مكتملا وشاعرا هاويا . وعين فى مكتب أحد مهندسى الكنائس يدعى ارثر بلومفيلد وظل يعمل هنالك خمس سنوات « ذلك الرجل الملتحى ، الشاحب الهادىء ، الضئيل ، الذى يتكلم قليلا ويستوعب كثيرا وهو شخص لابأس به ولد لأبوين بالغى الفقر غير انه فنان مكتمل فى نحو السادسة والعشرين. وهو يهمل صدريته شيئا ما ، وينهش الكتب دءوبا كأنه الدودة . وقد استوعب شكسبير حتى الثمالة من

الملاحظات بأسفل الصفحات ، ولن ينجح مطلقا بالمعنى الدنيوى . اذ يعوزه الجد والنشاط الضروريان لكسب معرفة الناس واستغلالهم » .

هذه الصورة التى رسمهاهاردى لادواردسبرنجروف أحد أشخاصه فى Desperate Remedies تمثله أصدق تمثيل فى أواخر الحلقة الثالثة ، ذلك الشاب الريفى الذى لايأسر القلب ، والذى لابد له من التحوط حذار ان يتحدث بلهجة دور ستشير هو رسام مغمور يبدو أن مستقبله لايبشر بالنجاح .

ومع ذلك فان هذا الرسام الشاب غير المأمول الغد يقابل ويتصبى ويتزوج من فتـــاة تسبقه فى المــكانة الاجتماعية فقد كان منوطا به اصـــلاح كنيسة سانت جوليوت فى كورنوول . وهى مهمة قد ندبه للقيام بها صاحب المكتب الذى يعمل به وأثنـــاء عمله تعرف الى الآنسة ايما جيفورد أخت زوج أسقف كنيسة سانت جوليوت وكانت الآنسة جيفورد سليلة محامين وقسس ورؤساء شمامسة تحذق ركوب الخيل والغناء وتعرف النقش معرفة لابأس بها وهى من المتعالين ذوى المعارف العامة . « فماذا اغراها بى وانا ابن بنـــاء فقير؟ انى لا أعلم » ولكنه اســتطاع على نحو ما ان يطلب يدها فتنسى معطفه الرث ولحيته الشعثاء فتنزلت بقولهـــا (نعم) وهكذا « عدت من ليونيس بكورنوول وفى عينى بريق سحرى » .

ويقبل شهر عسل قصير هاذر وحياة زوجية طويلة يسودها الخلاف فانأحدهما لم يفهم صاحبه قط فعاشا على اختلاف فى النزعات الجسمية والاجتماعية . فهى تحب ركوب الجيـــاد ويؤثر هو المشى ولم يتعلم قط

ركوب الخيل ولم يستطيعا الانسجام طول حياتهما ولكن هاردى لايشكو قط بل يحاول ان يهيىء لزوجته منزلا مريحا وان يقدم اليها على الأقل أيسر الضرورات لمن فى مكانتها وكان يعول على الهندسة فى كسب عيشه فزاد ركونه الى احتراف الأدب وأغرته اما بالتحول عن الشعر الى النثر « ولم أرد قط ان أكتب قصصا نثرية ولكنى اضطررت الى صناعتها فالظروف (وهو يشير تجملا الى اما) هى التى حملتنى على كتابتها » .

وهكذا كان الفضل فى انشاء طائفة من أروع قصص الغرام راجعا الى الجاف امرأة لا تحب زوجها .

وتبنى قصص هاردى فى معظمها على نظرية الحب الموجه الى غير محب ويتحدث (كرستوفرجوليان) عن هذه النظرية The Hand of Ethelberta مداعبا فيقول « لقدسمعت بالحب غيرالمتبادل وبالحب المتبادل، وبالحب من كل نوع . غير ان هذه أول مرة أسمع فيها بالحب المسلسل . انت تحبيننى ، أنا أحب ايثل برتا ، وهى تحب الله أعلم من » . فالحياة كلها اذن مسلاة من الأخطاء تدور فى مملكة الغرام فكل عشيق يحب شخصا آخر غير عاشقه وكارثة العشاق جميعا انه لايوجد منهما اثنان يتبادلان الغرام .

وكان من أثر هذا الموقف الساخر القاتم الذى وقفه هاردى من العاطفة البشرية ان وجد طريقه وعرا مع الناشرين والناقدين أول الأمر فكانت شهرته تنمو فى بطء . وكان لابد من ان ينشر عدة قصص طبع بعضها من ماله الخاص حتى ينتبه العالم اوجود هذه الرقة الكبرى التى نمت من الحزن العظيم . فان قصصه لتسودها نغمتان هما السخرية والرثاء : سخرية السماء

ورثاء الانسان . ولقد عجز بعض النقاد حتى فى الأزمنة الحديثة ـ عن تبين هذا الجانب المزدوج من فلسفة هاردى فيقول أحد المعقبين المحدثين « ان هاردى لايرى غير الجانب الدميم من الحياة » .

ويقول ناقد آخر يعدله تعصبا « لابد ان جدا من اجداد هاردى قد تزوج صفصافة ذات شجون » على ان جل النقاد اليوم قد صاروا يتبينون فى هاردى نوعا جديدا من الجمال ، جمالا مستسلما ذا نغمة مؤسية . ويتبينون فى الوقت ذاته جمالا ايجابيا يضوع رحمة ورقة .

جمال جديد وفلسفة جديدة . فلسفة لا هى تفاؤلية ولا تشاؤمية ، بل هى بين بين ويسميها هاردى نفسه فلسفة تحسينية . فهى جهد لتحسين العالم الذى يحوى قدرا من الشر غير يسير ، غير انه يستطيع ان يحوى قدرا من الخير كبيرا : « فواجب الناس ان يعلموا بنى جنسهم كيف يواجهون ذلك الشقاء الذى كتب عليهم » .

ونظرية التراحم التحسينية تلك ، نظرية العجز المتبادل الذى انبتته الشقوة المتبادلة ، هذه النظرية كانت تنمو تدريجا فى فلسفة توماس هاردى . ففى قصصه الأولى كان يلوح بقبضته فى وجه السماء التى لا تحفل اى احتفال بمن خلقت من الناس . وبعد ذلك نقل لومه من السماء الى الانسان . ولعله كان يردد مع شكسبير قوله « ان الخطأ يابروتس العزيز ليس فى حظوظنا ، بل هو فى انفسنا ، لأننا أذلة » انه ليس القدر ولكنه ضعفك انت هو ما يقف دونك .. عجزك عن معرفة باب تدلف منه الحكمة اليك بدل ان يدلف الملل .. ثم ان

الشر ليس من السماء ، ولا من غباء الأفراد ، بل انها قسوة الانسان فى حشد الناس ، اى قسوة المجتمع .. هى المسئولة عن معظم شقائنا البشرى. فكان كلما علت به السن ازداد شجاره مع المجتمع مرارة لأنه يوقع بالفرد ظلما منظما ، وقد كتب فى عام ١٩٢٨ مقطوعة شعرية فى عيد الميلاد توجز ما يشعر به من حنق على تلك الوحشية المستعصية ، وحشـــية ذلك القطيـــع البشرى . « قيـــل السلام فى الأرض ، فترنمنا بهذه العبارة . واستأجرنا مليون قسيس ليجلبوا لنا السلام. وبعد ألفى عام من الصلاة لم نصب السلام بل الغـــاز السام » .

كان هاردى يستثيره قتل الجسوم البشرية ، وازهاق الأرواح البشرية ، وطالما عاود هذا الموضوع فى قصصه الأخيرة . وكان يقول ان العقاب الذى تفرضه الجماعة جزاء على الخطأ الفردى يتجاوزحدود الرحمة الانسانية. والعدل الانسانى ، وتتمثل هـــذه النظرية وهى الفكرة الرئيسية فى فلسفته قصة (تس سليلة دربرفيل) .

كانت تس ضحية لقانون خلقى صارم وتقليداجتماعى عنيف ، فان أباها الفاسق الأفاق جون دربرفيل لايعلم بأنه من سلالة أسرة دربرفيل النبيلة حتى يختال زهوا. وتأخذ زوجته تحلم بزيجة براقة تليق بابنتها تس ، لذا يلح الأبوان عليها لتعمل مربية للدواجن فى مزرعة السيدة غير الدمثة (ليدى دربرفيل) .

وهناك تقابل تس ولد السيدة العجوز وكان يدعى (الك) دربرفيل .. وكان وغدا وسيما لاوازع لديه ولا ضمير يردعه ، فكان غزل وجيز وخيبة أمل وطفل .. وسرعان ما يموت الطفل وتعود تس الى أهلها .

ومضى بعض الوقت قبل ان تجد الشجاعة على مواجهة العالم من جديد ولكنها تقبل آخر الأمر وظيفة حالبة بمزرعة (تالبوذى) وهناك تتعرف الى (انجيل كلير) وهو ابن قسيس عجوز، وكان انجيل قد تحول من رعاية الأرواح الى فلاحة الأرض .. الأمر الذى ملأ أباه أسفا.

وتوثقت الصلة بين الاثنين ، فاذا أعلن انجيل حبه لم تجرؤ تس على اظهاره على حياتها الماضية . فان حلمها لأجمل من أن يحطمه ذلك الوحش الدميم ، التقليد الاجتماعى .

ويقترب يوم الزفاف ، وتكتب فى لحظة من لحظات اليأس الصادق خطاب اعتراف مطولا وتقذف به تحت الباب . ولكن يدها تقودها يد القدر ذات السر الغامض، فينزلق الخطاب تحت البساط وتهتدى قبل الزفاف مباشرة الى الخطاب وتمزقه ، ان شجاعتها على تحمل العقاب لأضعف من ظمئها الى الحب .

فيتزوجان وفى عودتهما من الكنيسة يسمعان نعيق غراب رمزا على انكار المجتمع . ياله من صوت جاء فى غير وقته . غراب ينعق بعد الظهر، ياله من فال سيىء.

وتقيم تس وانجيل فى منزل ريفي شاعرى عتيق. وهناك يعترف انجيل بجريمته الوحيدة فقد قضى يومين ماجنين مع امراة حمراء اللون ، وطلب الى زوجته الصفح فتسارع الى الصفح عنه ، ثم تروى هى قصة خطيئتها ولكن انجيل كلير يعوزه ما لديهما من استعداد للصفح . انه المستوى الثنائى للمجتمع .. ان المراة يجب الا تخطىء .

ويحدث الانفصال وتعود تس الى أهلها فتأخذ أمها

الأمر فى يسر ولكن جراحا بالغة قد أصابت كبرياء أبيها الدربرفيل السكير . فقد عد الأمر خطيئة منها لا تغتفر .

وتجد تس عملا فى المزارع صيفا . وتخصص جزءا كبيرا من رزقها لاعانة ابويها . فاذا تقدم الشتاء فقدت معظم عملها . عمل قليل الأجر، قذرشاق تعقبه فترات طويلة من الجوع واليأس فقررت آخر الأمر ان تقوم بمحاولة يائسة واحدة لترى أبوى انجيل فلعها تحيط ببعض أخباره وتكدح فى سيرها أميالا كثيرة خلال المطر والثلج ولكنها تجد دار الراعى خاوية .

فتعود أدراجها وتقضى أياما اخرى طوالا يعضها الجوع ، ويجثم عليها كابوس الذلة التى لا أمل لها فى الفرار منها . أن المجتمع يجب أن ينال منها ضريبته .

وكانت تمر يوما بأحد مخازن الحبوب فسمعت صوتا صخابا لمتجول يصيح . انه لصوت تعرفه فتنظر فى داخل المخزن فترى فيه (الك دربرفيل) ويتوسل اليها (الك) أن تعود معه فترفض اول الأمر ولكن فقر امها بعد موت أبيها .. يضطرها الى الاذعان آخرالأمر .

فتمنح جسمها (لألك) ، ولكن قلبها لايزال فى تجواله بحثا عن انجيل كلير. وكان هو أيضا وقتذاك يبحث عن تس وهو تعس مريض قد خفت غضبه القديم ولم يخلف فى مكانه غير شوق عميق الى عروسه .

ويجدها فى نزل حديث الطراز.. امراة قد سقطت ان القدر الذى لايرق ولا يرحم كما يتمثل فى العرف الاجتماعى.. قد عقد ظروف حياتيهما بحيث يعجزهما

عن استئناف ماكان بينهما . فيأخذ انجيل كلير فى السير الى بلدته .

وتلحق به تس فى بعض ضواحى المدينة وتقول (لقد قتلته .. انه يسبك فأديت بهذا مالك عندى من ذمم. ولم يكن من طريق لاستعادتك غير هذا) .

ويخرجان من مشهد آلامهما وقد أمسك كل منهما بيد صاحبه . لقد جمع القــدر شملهما آخر الأمر . ولـكنها لحظة واحدة من السخرية الفاجعة . فيقبض عليها فجر اليوم ، وتغرب آمالها مع مشرق الشمس ، وتحاكم تس وتثبت ادانتها . وما هى الا ثمانى دقات تنبعث من الناقوس ، ثم يتلوى فى الهواء شبح أسود. لقد وفت تس بدينها للعرف الاجتماعى .

— ٣ —

حينما نشرت (تس سليلة دربرفيل) هوى النقاد على هاردى كأنهم سرب من العقبان . « انه كاتب دنىء لاريب » كذلك كان الحكم الاجماعى عليه كما لخصه وليم جيمس فى قوله : « من كان يستطيع ان يخلق بطلة بهذه الدناءة » وكان من المستحيل فى وسط هذه الضجة الخشنة من الاتهام ان تسمع تلك الأصــوات القليلة الضعيفة التى تطرى الكاتب وتمتدحه . فقــد ادركت هذه القلة انه قد وجد أخيرا أديب من الانجليز يجرؤ على الانتصار للرحمة ، والتوسع فى التسامح ، ونبذ النفاق الاجتماعى .

اما هاردى فلم يفعل للقادحين أو المادحين غير أن هز كتفه وهو يقول (مهما يكن من الأمر فقد اودعت هذا

الـكتاب خير مالدى)

ووضع (خير مالدى) فى قصته الهامة التالية (جود المغمور(١)) فاثار على نفسه بركانا من القدح والطعن. فهذا احد المعقبين يقول فى صحيفة أمريكية « ان هاردى قد أخزى نقاده .. وصدم أصدقاءه ويبدو ان عقـل مستر هاردى كان فى دركه الأسفل طوال كتابته هـذه القصة ، فهو يخرج عن طريقه ليكون قذرا وقحا. وانى لم أتمم قراءة هذه القصة حتى فتحت النافذة ليدخل اليها الهواء النقى » وقد وصف كاتب أمريكى قصـة جود : بأنها من أوقح الـكتب التى قرأها فى حياته . ورسمت مجلة بريطانية صورة هزلية لهاردى فصورت عملاقا ضخما غليظا يدوس وردة فى الوحل مثيرا من الطين رذاذا يصيب كل من وقف على مقربة ، وحرق محاضر بريطانى أمام الملأ كتاب جود المغمور .

وقد اضطر هاردى حين نشرت أجزاء من الكتاب فى احدى المجلات الى بتر الأشخاص والمواقف ، فصارت هذه الأجزاء شيئا ميتا زالت معالمه . ومنذ ذلك الوقت صار الناشرون يرفضون قصصه ، أو يعيدون كتابتها لتلائم حساسية القراء . ويروى هاردى للسيدة وارتون محزونا انه كان فى احدى هذه القصص قد وصف نزهة بريئة قام بها البطل والبطلة يوم الأحد، فلما عرض القصة على ناشر اسكتلندى رد اليه القصة وطالب بنقل النزهة الى يوم آخر من أيام الأسبوع .

(١) ان قصة جود المغمور تمثل الصراع بين نفســين مرهفتين ، وبين العرف الاجتماعى الخشن القاهر الغلاب . ولم يتزوج البطلان وان عاشـا عيشة الازواج وأنجبا الاطفال . أما زوجة البطل الشرعية ، التى لم يلبث أن طلقها وان ظلت تلاحقه ، فكانت من تاجرات الجسد اللاتى تخففن من الضمير والخلق والشعور (المترجم) .

فامتعض هاردي وقال : (كنت احسب انى اكتب لقراء أذكياء) لقد كانت قصصه اقوى من ان تحتملها أذواق القرن التاسع عشر المثقلة بالتقاليد . فقرر ان يعود الى أشعاره « فلن يؤذى شعرى احدا لأنه لن يقرأه أحد » .

فألف ونشر ثمانية مجلدات من الشعر الغنائى ، وملحمة عن حياة نابليون . دعاها المواهل. وقد استعاد تدريجا ما فقده من احترام . فانتهى أمره بأن صار لايقرأه احد ويعجب به جميع الناس وانتقل فى وقار الى شيخوخة لم يزعجها غير فقد زوجته وكان ذلك صدمة قاسية برغم ما كان بينهما من خلافات. فالحياة العاصفة ذاتها لا تخلو من نكهة شهية .

واعقب العاصفة هدوء ، فقد تزوج ثانية وهو فى الرابعة والسبعين من امرأة فى الخامسة والثلاثين فاجتمع الخريف والربيع لأول مرة فى وفاق تام .

ومع ان زوجة هاردى الثانية كان من حقها ان تدعو نفسها شاعرة ، فقد قنعت بمجد الانتساب الى شاعر مجيد .

وذات غروب رائع رزين انهى يوم حياته الطويل ، وترك وراءه ذكرى جميلة نبيلة ، قال فيها جون ارفين:

« لقد تعلمنا منك ان القلب المعتد بكرامته يستطيع اخضاع الاقدار القاسية لمشيئته . وقد كشفت فى كل ما كتبت عن روح الانسان يقتحم طريقه من خلال الهزائم » .

فهرس

صفحة

كتاب الهلال القادم :

الاسلام
والوحدة الوطنية

بقلم
الدكتور محمد عمارة

يصدر ٥ فبراير سنة ١٩٧٩



هــذا الكتاب

يقول (اندريه موروا) فى مقال شهير له عن الانسان والفن ٠ ان كتابة القصة تؤدى وظائف اجتماعية ونفسية هامة للكاتب والقارىء على السواء ٠ فالكاتب لا يستطيع أن يجاوز حدود الصراحة التقليدية فيما يرويه من كلام منسوب الى نفسه ٠ ولكنه يستطيع ذلك باضافة هذا الكلام وما ينطوى عليه من آراء الى أحد شخصيات القصة ٠

وكذلك فانه يستحى أحيانا من أن يزهو بنفسه ويدافع عن مواقعه الشخصية فى الحياة ، اذ لجأ الى طريق الأدب المباشر ٠٠ أو المقالات أو الاعترافات التى تدينه أو تثنيه ، ولكنه يستطيع أن يختفى وراء بطل قصصى يتسم بكل الملامح التى أراد أن ينسبها الى نفسه ٠

وبهذا ينفس الكاتب عن نفسه فنيا على نحو يمتعه ويريحه ، ويشترك معه قارئه فى كل هذا ٠

كما انه يخوض المغامرات والمآزق بقارئه ، دون أن يثقل على هذا القارىء بضرورة التصرف أو اتخاذ موقف فى تلك المآزق ، بل يحمله من خلال أهوالها آمنا مطمئنا حتى نهايتها ٠

هذا بعض الحرية التى يمنحها الروائى أو القصاص ...

أما كاتب الرواية أو القصة فهو يروى مغامراته ... المحصبة ـ وخواطره الحرة على أنها من حماقات غيره ... للكاتب والقارىء ٠٠ ينعمان بها فى راحة ورحابه ، ويس... مع ذلك آفاقا من الفكر والخيال لم تخطر على قلب بشر ...

وسيجد القارىء فى المجموعة التى بين يديه مصدا... موروا ٠ سيجد صيحة موباسان فى وجه الحرب ، و... وجه السياسة ، وتحدى أشخاص هازدى للغول الاجت... الكاتب والقارىء قد استمتعا بحرية غير محدودة ، فى ... محدود ٠

٢٠ قرش...

الجزء الثانى